

KHISBAK

AHWAL AL-'IRAQ AL-IQTISADIIYAH

Khisbāk, Jafar Husayn

Ahwāl

أحوال العشرفى الاقصادية

فى عهد الإيلخانيين المغول

٦٥٦ - ٧٣٧ هـ (١٢٥٨ - ١٣٣٦ م)

تأليف

الدكتور جعفر حسين خصباك

الاستاذ المساعد فى جامعة بغداد

مستل من العدد الرابع من مجلة كلية الآداب ١٩٦١

أحوال العراق الاقتصادية

في عهد الايلخانيين المغول

٦٥٦ - ٧٣٧ هـ (١٢٥٨ - ١٣٣٦ م)

الدكتور جعفر حسين خصباك

- ١ -

(نظام الري)

كانت البلاد التي تكوّن عراق اليوم تتكون في عهد الايلخانيين المغول من ولاية العراق العربي وأجزاء من ولايتي الجزيرة والعراق العجمي وكانت أهمها جميعا ولاية العراق العربي وقد حدده صاحب مراصد الاطلاع وهو معاصر بأنه كان يمتد (ما بين حديثة الموصل الى عبادان طولا وما بين عذيب القادسية الى حلوان عرضا)^(١) وأشار اليه القزويني المتوفى سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٣ م) بأنه كان يمتد (من الموصل الى عبادان طولا ومن القادسية الى حلوان عرضا)^(٢) وفعل مثل ذلك عبدالله بن فضل الله صاحب تاريخ وصاف الذي وضع كتابه في أوائل القرن الثامن الهجري^(٣) والاشارتان الاخيرتان تمدان رقعة العراق العربي الى الشمال فتضيفان اليه جزءاً من بلاد الجزيرة ، ويبدو أن سبب ذلك وقوع المنطقة الاخيرة تحت حكم الايلخانيين حالها في ذلك حال العراق ، بينما كانت المنطقتان منفصلتين عن بعضهما سياسيا واداريا خلال الفترة الاخيرة من العهد العباسي . وقد كان يشق هذه البلاد كما هو عليه الآن نهران عظيمان هما دجلة والفرات لولاهما لكانت قطعة من الصحراء . وكان أهم ما يميزهما عن الوقت الحاضر أن دجلة كانت تسير جنوب بغداد الى الغرب من مجراها الحالي فتمر بواسط

(١) مراصد الاطلاع ، ج ٢ ، ص ٩٢٦ .

(٢) زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ،

ص ٢٨٠ .

(٣) تاريخ وصاف (طبعة الهند) ، ج ٤ ، ص ٤٤٠ .

وأن الفرات كان ينقسم تحت نقطة تفرع نهر كوثي منه بستة فراسخ الى فرعين يسير الغربى منهما الى الكوفة ومنها الى البطائح بينما يسير الآخر نحو الجنوب الشرقى الى مدينة بابل القديمة حيث يكون عمود النهر فى هذه الفترة ويتفرع عندما يتجاوزها الى عدة أنهار يمر أكبرها بمدينة النيل ويسمى بعدها بنهر الصراة ثم يصب فى دجلة^(٤) عند مدينة سايس فوق واسط • وكانت تتفرع من الفرات عدة أنهار تصب فى دجلة أهمها نهر عيسى وكان يخرج من الفرات تحت مدينة الانبار ويصب فى جوف الجانب الغربى من بغداد ونهر صرصر ومخرجه من تحت نهر عيسى ومصبه فوق المدائن بأربعة فراسخ ونهر الملك ومخرجه تحت نهر صرصر ومصبه أسفل من المدائن بثلاثة فراسخ ونهر كوثي ومخرجه من تحت نهر الملك بثلاثة فراسخ ومصبه أسفل نهر عيسى بعشرة فراسخ وكان خربا فى هذا العهد على ما يقوله صاحب مراصد الاطلاع^(٥) يؤيد ذلك عدم اشارة المستوفى القزوينى اليه • أما أهم الأنهار التى كانت تتفرع من دجلة فهى نهر القورج فى شمالى بغداد على الجهة الشرقية منها وكان منه أكثر غرق بغداد^(٦) • ومن الجهة الغربية كان يتفرع نهر دجيل من دجلة أسفل موقع مدينة القادسية جنوبى سامراء حيث تقوم عليه مدن وقرى عديدة ويصب فى دجلة^(٧) بأزاء عكبراء • وكان نهر الاسحاقى الى الشمال من دجيل يخرج من دجلة جنوبى مدينة تكريت ويصب فى نفس النهر الى الشمال من مخرج نهر دجيل ويبدو أنه كان جافا فى هذه الفترة لاننا لم نعر له الا على اشارتين ضعيفتين فى مراصد الاطلاع^(٨) وصبح الاعشى^(٩) • أما أهم الأنهار التى كانت تنحدر من الجبال الشمالية الشرقية نحو دجلة

(٤) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٥٤ - ٥٥ .

(٥) مراصد الاطلاع ، ج ٣ ، ص ١٠٢١ .

(٦) ن . م . ج ٣ ، ص ١١٣٢ .

(٧) ن . م . ج ٢ ، ص ٥١٦ .

(٨) حمد الله المستوفى القزوينى (الترجمة الانكليزية للقسم الجغرافى

منه بقلم G. Lestrangle) ص ٢٠٧ .

(٩) صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٢٤ .

فهى الزاب الكبير والزاب الصغير وديالى أو (تامرا) (١٠) .

وكان نهرا دجلة والفرات يدخلان البطائح بعد واسط والكوفة وهى مجموعة من الاهوار كانت تمتد بين واسط والبصرة كان فيها الكثير من المواقع العالية التى ينكشف عنها الماء وتقوم عليها قرى ومزارع يكثُر حوالها القصب ويزرع فيها الرز وغيره (١١) وكان النهران المذكوران يخرجان من البطائح ليلتقيان بالقرب من قرية (مطارة) (١٢) ويكونان دجلة العوراء أو شط العرب الحالى الذى كان يسير جنوبا نحو الخليج الفارسى (١٣) . وبينما يشير أبو الفداء الى كثرة الانهار التى كانت تتفرع من دجلة من الجانبين الشرقى والغربى حتى تبلغ فى عددها المائة الف (١٤) يقول المستوفى القزوينى أن خمسة أنهر كبيرة هى (دقلة) و (غراف) و (جعفر) و (ميسان) و (ساسى) كانت تستنزف مياهه حتى لا يبقى فى مجراه بعد ذلك الا القليل الذى لم يكن يكفى لسير السفن (١٥) . يضاف الى ذلك أن أنهارا عديدة كانت تتفرع من دجلة العوراء (١٦) . وتسقى المنطقة المحيطة بالبصرة ولكن الكثير منها كان خرابا (١٧) منذ أواخر العهد العباسى .

كان رخاء العراق يعتمد بالدرجة الاولى على الزراعة التى كان ازدهارها يقوم على نظام الرى لقلة الامطار التى تسقط فى هذه المنطقة ولم يكن لسلطين

(١٠) مراصد الاطلاع ، ج ١ ، ص ٢٥٠ ، ج ٢ ، ص ٥٤٨ .

(١١) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٤٣ .

(١٢) يرى صديقنا الفاضل الدكتور محمد رشيد الفيل ان القرية المذكورة تمثل مدينة القرنة الحالية وهو أول كاتب أشار الى هذه الحقيقة المهمة (انظر أطروحته وهى لم تنشر بعد وعنوانها جغرافية العراق التاريخية بين الاحتلالين المغولى والعثمانى (بالانكليزية) ص ٢٠٦ - ٢٠٧) .

(١٣) نزهة القلوب ، المصدر الذى مر ذكره ، ص ٢٠٧ .

(١٤) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(١٥) نزهة القلوب ، ص ٢٠٧ .

(١٦) انظر مراصد الاطلاع ، ج ١ ، ص ١٩٢ ، ١٩٨ ، ٣٣٥ ،

ج ٢ ، ص ٧٨١ ، ج ٣ ، ص ١٢٥٩ ، ١٣٩٩ .

(١٧) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٥٦ - ٥٧ .

الايلاخانيين وحكدهم فى العراق سياسة واضحة فى هذا الشأن فلم يردنا ما يشير الى أن حكومات هذا العهد كانت تهتم بإزالة ترسبات الانهار والقنوات ولا فتح قنوات جديدة الا النهر الذى أمر غازان بفتحه من الفرات من أعلى مدينة الحلة والذى سمي باسمه النهر الغازاني وربما كان نفس النهر العباسي المسمى بالعلقمي ولكن غازان أعاد فتحه وتنظيفه^(١٨) وبينما يشير صاحب الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة اشارة مقتضبة اليه^(١٩) يقدم لنا رشيد الدين فضل الله تفصيلا جيدا عنه بقوله ان غازان أمر بفتح نهر فى منطقة الحلة سمي بالنهر الغازاني أوصله الى مشهد الحسين حتى أخذ يسقى أراضي كربلاء اليابسة فأصبحت الاراضى الممتدة على جانبيه مليئة بالحدائق والبساتين واصبحت السفن القادمة من بغداد وغيرها من دجلة والفرات تستطيع الوصول الى المدينة وارتفع انتاج غلات المنطقة الى ما يقارب المائة الف طغار وأصبحت صادراتها من الحبوب والخضروات الفاخرة تصل الى بغداد واعمالها • ويضيف رشيد الدين الى ذلك ان غازان اوصل الماء فى فرع من النهر المذكور الى مشهد سيدى أبى الوفاء فى نهر سمي بالنهر الغازاني الاسفل وأوقف الكثير من الاراضى الجديدة على خدمة المشهد المذكور • وقد عمرت الاراضى الواقعة على نهر الغازاني وارتفعت أسعارها وأسعار البيوت التى انشأت عليها اضعافا مضاعفة^(٢٠) • يضاف الى ذلك ان صاحب تاريخ وصاف يشير الى ان عطا ملك جوبنى ، صاحب ديوان العراق فتح نهرا من الفرات الى النجف أنفق عليه اكثر من مائة الف دينار وقد زرعت الاراضى الواقعة عليه بالاشجار والمزارع^(٢١) • ولكن وصاف ينفرد بهذا الخبر الذى لم يرد فى أى مصدر معاصر آخر • وعلى الرغم مما كنا نسمعه من حوادث الغرق المتكررة لبغداد وكثير من مدن العراق خلال السنين الاخيرة من العهد العباسي فإن أخبار العهد الايلخاني لا تشير الا الى القليل منها فقد

(١٨) تاريخ وصاف ، ج ٤ ، ص ٤٠١ •

(١٩) الحوادث الجامعة ، ص ٤٩٧ •

(٢٠) داستان غازان ، ص ٢٠١ - ٣٠٣ •

(٢١) تاريخ وصاف ، ج ١ ، ص ٥٩ •

غرقت بغداد وانفتح القورج في ٦٧٦هـ (١٢٧٧م)^(٢٢) وزادت دجلة زيادة عظيمة غرقت بسببها عدة مواضع على الجانب الغربي حتى تلفت الكثير من الزروع سنة ٦٨٣هـ (١٢٨٤م)^(٢٣) وزادت الفرات زيادة عظيمة غرقت فيها أعمال الحلة والكوفة ونهر الملك ونهر عيسى سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٦م)^(٢٤) وغرقت بغداد غرقا عظيما حتى أحاط بها الماء من كل جهة سنة ٧٣٥هـ (١٣٣٤م)^(٢٥) . وهذه حوادث قليلة متباعدة اذا قورنت بما كان يحدث في أواخر العهد العباسي ويبدو ان الفرق بين الحالتين يعود للصدفة فقط . ولا بد لنا ان نلاحظ في هذا المجال أنه بينما كان العراق العربي يكاد يكون دولة بنى العباس نفسها في عهودهم الأخيرة ورخاؤه الاقتصادي أساس غناهم وقوتهم ، لم يعد في العهد الايلخاني الا ولاية ممتازة فقط من ولايات عديدة تؤلف امبراطورية شاسعة وبينما كانت بغداد عاصمة العباسيين وقاعدة حكمهم أصبحت تبريز ثم السلطانية هما قاعدتا الايلخانيين الرئيسة ولذلك فإن عناية هؤلاء تركزت في ايران دون العراق الذي وقع لولائه أمر العناية الرئيسة بشؤونه التي كان من بينها أمور الري يضاف الى ذلك ان الحكام الايلخانيين كانوا غير بعيدين عن البداوة وكان ادراكهم لامور الري وما يرتبط بها من سياسة اقتصادية عامة محدودة . وقد زاد في سوء الاحوال ما نشب بينهم من فتن وما حدث من تنافس وتآمر بين نوابهم من حكام العراق .

أما ما يقال عن تخريب الايلخانيين المغول المنظم لنظام الري في العراق فإنه أمر لا صحة له البتة لان المصادر المعاصرة لا تشير في هذا الباب الا الى تخريبهم العمدي لنهر صغير من فروع دجيل خلال حربهم مع جيش الخليفة المستعصم بالله شمالى بغداد الغربية سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)^(٢٦) . وقد كان نظام الري العباسي الاخير قائما أيام الفتوحات الايلخانية .

(٢٢) الحوادث الجامعة ، ص ٣٩٤ .

(٢٣) ن . م . ص ٤٤٢ .

(٢٤) ن . م . ص ٤٤٩ .

(٢٥) شمس الدين الذهبي ، تاريخ دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٧٧ .

الزراعة

ليست لدينا حقائق واضحة يمكن الاطمئنان اليها عن مساحة الاراضى المزروعة فى العراق أيام الایلخانیین ولكن معرفتنا بنظام الرى القائم آنذاك وطبيعة البلاد وافادات الجغرافیین والسواح وكتاب التاریخ المعاصرین تدل على أنها كانت لا تزال كبيرة واسعة وقد كانت الزراعة تقوم بصورة رئيسة على نهري دجلة والفرات والانهار التى تصب فیهما وتتفرع منهما بينما كانت منطقتا الجزيرة والجبال أو العراق العجمی تعيشان على الامطار التى تتفاوت مقادیرها بین سنة وأخرى فتفاوت المساحات الزراعية تبعاً لها • يحدثنا المستوفى القزوینی ان العراق فى عهده كان يحتوى على الكثير من الاراضى غير الصالحة للزراعة بسبب كونها صحراء أو مغطاة بالاهوار وأن القوة الانتاجية للوحدة الزراعية كانت منخفضة فى عهده الى حد أنها كانت تبلغ نصف ما كانت عليه أيام الخليفة عمر بن الخطاب وأن من أسباب ذلك التدخل السیء غير الصالح من قبل الحکام فى شؤون الزراعة وبينما كانت مساحة الاراضى المزروعة والتى كان يتوفر لها الماء اللازم للزراعة تبلغ الستة وثلاثین مليون جریبا فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب فأنها أصبحت أصغر من ذلك فى أواخر العهد العباسی نظراً لموت مشروع النهروان وكان من أعظم مشاريع الرى فى العالم القديم وعالم القرون الوسطى وذلك أيام الملوك السلجوقية ولموت انهار وقنوات كثيرة فى البصرة وغيرها وتغیر دجلة لجراه الى اليمين شمالی بغداد ثم لجفاف نهر کوئى أيام الایلخانیین وأن النهر الغازانی لم یکن من السعة بحيث یعوض تلك الخسارة • ويمكننا القول باطمئنان ان المناطق الرئيسة التى كانت تقوم علیها ثروة البلاد الزراعية هى كما یلى :

أولاً : منطقة ما بین النهرین دجلة والفرات الواقعة بین الحلة وبغداد ویبدو

(٢٦) الحوادث الجامعة ، ص ٣٢٤ ؛ تاریخ وصاف ، ج ١ ، ص ٣٤ .

أنها كانت أغنى بقاع العراق العربى وأكثرها إنتاجا لكثرة الانهار التى كانت تجرى فيها من الفرات الى دجلة فابن جبير وقد مر بها فى ٥٨٠ هـ (١١٨٤م) يصف الطريق بين الحلة وبغداد بأنه أحسن طريق وأجملها تتصل به القرى يمينا وشمالا وأن الانسان لا يكاد يسير ميلا حتى يجد قنطرة على نهر يتفرع من الفرات وأن الجبوب والبساتين وحدائق النخيل تكثر فى المنطقة وأنه عند اقترابه من بغداد أصبحت دجلة تسقى شرقى المنطقة والفرات يسقى غربها والقرى والمزارع متصلة بين النهرين^(١) • ويلقى حمد الله المستوفى الفوزينى ضوئاً مفيداً على أحوال المنطقة فى أواخر العهد اليلخانى فى اشاراته المتكررة الى مدنها وأنهارها فهو يصف الحلة بكثرة بساتين النخيل الى حد ان مناخها أصبح رطبا بسبب ذلك ويصف غلاتها بالرخص والتشابه مع غلات بغداد^(٢) ويصف منطقة نهر النيل بالقرب من الحلة بكثرة بساتين النخيل وإنتاج الحنطة^(٣) • ومع أنه لا يذكر نهر كوثى مما يدل على انه كان خرباً فى عهده فإنه يشير الى نهر الملك بأنه كان يقوم عليه أكثر من ثلثمائة قرية تقدم لخزينة الدولة ضرائب تبلغ الخمسين ألف دينار^(٤) ويصف منطقة نهر عيسى بأنها كانت تقدم مع توابعها واردات للخزينة تبلغ (٨٧٦٥٠٥) ديناراً وعند كلامه عن منطقة بغداد يؤكد على رخص غلاتها الزراعية فى أكثر فصول السنة وتوفر الفواكه فيها ورخصها مثل التمر المكتوم والخستوى والرمّان المسمى بالدراجى والعنب المراقى الذى لم يكن يوجد مثله فى أية بلاد أخرى وزراعة القطن والحنطة والحبوب الاخرى فيها وغنى مراعيها حتى ان البقر فيها يبدو شديد السمنة وحيوانات الصيد كثيرة العدد^(٥) •

(١) رحلة ابن جبير (تحقيق الدكتور حسين نصار) ، ص ٢٠٠ -

(٢) نزهة القلوب ، ص ٤٧ •

(٣) ن . م . ص ٥٣ •

(٤) ن . م . ص ٥٢ •

(٥) ن . م . ص ٥٢ •

(٦) ن . م . ص ٤١ •

ثانيا : منطقة البصرة : وقد وصفها أبو الفداء بكثرة البساتين والمزروعات^(٧) وأشار ابن بطوطة الى المنطقة الواقعة بين ساحل البصرة والابلة بأنها بساتين متصلة ونخيل مظلة عن اليمين واليسار والى مدينة البصرة بأنها ذات بساتين كثيرة وفواكه أثيرة ليس فى الدنيا أكثر نخلا منها^(٨) . وزاد المستوفى القزوينى على ذلك بقوله أن منطقة البصرة كثيرة البساتين الى حد يصعب معها على الانسان النظر خلالها لمسافة طويلة^(٩) .

ثالثا : منطقة الفرت بين الانبار وعانة وقد وصفها رشيد الدين فضل الله فى كلامه عن وصوله اليها مع السلطان محمود غازان فى ٧٠٢هـ (١٣٠٢م) بأنها الى سروج وحران فى حدائق وبساتين الظل الكثيف لا ينقطع عنها ودواليب النواعير تتحرك فيها ليل نهار^(١٠) . وقد وصف ابن بطوطة المنطقة الواقعة بين الانبار وعانة عند مروره بها فى ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) بأنها من أحسن البلاد وأشدها خصوبة والطريق فيها كثير العمارة كأن الماشى فيه يسير فى سوق من الاسواق وقال بأنه لم ير ما يشبه البلاد الواقعة على نهر الصين من حيث الجودة الا هذه البلاد^(١١) .

رابعا : منطقة دجيل الى الشمال من بغداد بينها وبين تكريت وكانت تقول عليها قرى كثيرة تقرب من المائة غلاتها الزراعية كبيرة أشهرها الرمان المعروف بالدراجى^(١٢) .

خامسا : المنطقة الواقعة على نهر دجلة بين تكريت والموصل وقد أشار اليها المستوفى القزوينى بشهرة ليمونها وتوفر الفاكهة فيها فى تكريت^(١٣) . واتفق ابن جبير وابن بطوطة على الرغم من تباعد الزمن بينهما على اتصال

(٧) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٥٧ .

(٨) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١١٥ ، ١١٧ .

(٩) نزهة القلوب ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(١٠) داستان غازان ، ص ١٤٤ .

(١١) تحفة النظار ، ج ٢ ، ص ١٧٥ .

(١٢) نزهة القلوب ، ص ٤٨ ؛ مرصد الاطلاع ، ج ٢ ، ص ٥١٦ .

(١٣) نزهة القلوب ، ص ٤٦ - ٤٧ .

القرى والعمائر فيها^(١٤) . وأعجب الرحالة ابن سعيد ببساتين الموصل^(١٥) وأكد القزويني على توفر البساتين حول المدينة وانتفاع أهلها بدجلة انتفاعا جيدا مثل شقهم قناة منها نصبوا عليها النواعير وأقامتهم الطواحين في دجلة يديرها ماء النهر نفسه^(١٦) . ويظهر من الحقائق التي قدمها صاحب مراصد الاطلاع ان القرى كانت كثيرة حوالى المدينة المذكورة والزراعة واسعة غنية^(١٧) .

سادسا : طريق خراسان : وتقابل لواء ديالى فى وقتنا الحاضر ، وكانت من أغنى مناطق العراق وأكثرها سكانا وأشدها ازدهارا بالقرى الزراعية وقد كانت بساتين النخيل والفاكهة تكثر فيها خصوصا البرتقال وكان من أهم مدنها بعقوبة وشهرابان وباجسرا ومهرود وطبق والبنديجين^(١٨) .

هذه أهم مناطق العراق الزراعية أيام اليلخانيين وهناك مناطق صغيرة غيرها عرفت بجودة زراعتها ووفرة غلاتها مثل واسط وكانت معروفة بكثرة البساتين خصوصا النخيل^(١٩) . والكوفة وكانت مدينتها خربة فى هذه الفترة ولكن المنطقة المجاورة لها معروفة بجودة محاصيلها من القطن والحنطة والجبوب الأخرى^(٢٠) . وأربل وكانت معروفة بالحنطة والقطن^(٢١) . وسنجار وكانت تقع فى منطقة غنية كثيرة البساتين غزيرة الفاكهة خصوصا الزيتون والتين والعنب الفاخر^(٢٢) .

(١٤) رحلة ابن جبير ، ص ٢١٦ - ٢١٩ ؛ تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

(١٥) كتاب بسط الارض ، ص ٩٠ .

(١٦) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٣٠٩ .

(١٧) ج ١ ، ص ٥٤ ، ٣١٠ ، ٣١٦ ، ٤٠٣ الخ .

(١٨) نزهة القلوب ، ص ٤٩ ؛ مراصد الاطلاع ، ج ٣ ، ص ١٣٦١ .

ج ١ ، ص ٢٢٥ .

(١٩) نزهة القلوب ، ص ٥٣ .

(٢٠) ن . م . ص ٣٧ .

(٢١) ن . م . ص ١٠٢ .

(٢٢) ن . م . ص ١٠٣ .

ملكيات الاراضى والاقطاع

يمكن القول على ضوء النصوص المتوفرة لدينا أن الاصناف الآتية من الاراضى كانت موجودة فى العراق خلال الفترة الواقعة بين أول خلافة الناصر لدين الله وسقوط بغداد بأيدي المغول الايلخانيين ٥٧٥ - ٦٥٦ هـ (١١٧٩ - ١٢٥٨ م) • (أ) أراضى الخليفة^(١) (ب) أراضى الديوان أى ملكية حكومية^(٢) (ج) أراضى وقفية^(٣) (د) ملكيات فردية^(٤) • ومع أنه يصعب علينا تحديد نسبة كل صنف من هذه الاصناف فإن كثرة اقطاعات الناصر لدين الله من أراضى الديوان^(٥) يدل على سعة هذا الصنف من الاراضى فى عهده كما أن الاخبار الكثيرة عن الملكيات الفردية تؤكد سعتها^(٦) أيضا •

ويبدو ان الخليفة الناصر لدين الله كان أكثر خلفاء بنى العباس المتأخرين أقطاعا للاراضى والمدن فقد كان الامير فلك الدين الطويل الناصرى مقطع دقوقا وتكرت وبين النهرين^(٧) والامير (آى ابيه) بن عبدالله التركى المعروف بالشاهين مقطع واسط^(٨) مدة من الزمن والامير

-
- (١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، قسم ٢ ، ص ٥٦٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٦٥ •
 (٢) ابن الساعى ، الجامع المختصر ، ص ١٢٩ ، ١٥٠ ؛ مرآة الزمان ، ج ٨ قسم ٢ ، ص ٥٢٧ •
 (٣) مرآة الزمان ، ج ٨ قسم ٢ ، ص ٦٨٧ ؛ الحوادث الجامعة ، ص ٦٣ - ٦٤ •
 (٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٨١ - ١٨٢ ؛ عمدة الطالب فى أنساب آل ابي طالب ، ص ١٥٣ - ١٥٥ •
 (٥) ابن الساعى ، ج ٩ ، ص ٢٧ ، ١٥٠ ، ١٨٠ ، ٢١٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٦٦ •
 (٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٣ ، ص ١٨١ ؛ ابن كثير ، ج ١٣ ، ص ٦٦ ، الحوادث الجامعة ، ص ٢٦٤ •
 (٧) ابن الساعى ، الجامع المختصر ، ص ٢٧ •
 (٨) ن . م . ص ١٢٩ •

طغرل الناصري مقطع اللحف والبنديجين^(٩) ومثل ذلك غيرهم • ولكننا لا نسمع في أخبار المستنصر بالله الا القليل من أمثال ذلك مثل أقطاعه ككسندر معاملة الحدادية من أعمال واسط في ٦٢٧هـ (١٢٢٩م) وقوسان^(١٠) في زمن آخر وأقطاعه الامير حسام الدين أبى فراس بن جعفر بلد دقوقا^(١١) في ٦٣٠هـ (١٢٣٢م) والظاهر أن (قوسان) و (دقوقا) انتزعتا من مقطعيها لانهما اقطعتا بعد ذلك في زمن غير محدد للامير الطبرسي الظاهري المعروف بالدويدار الكبير^(١٢) وعند دراسة اقطاع هذا العهد نستطيع تمييز الخصائص الآتية فيه :

أولا : كان الاقطاع أسلوبا شائعا من أساليب الادارة العباسية يتم أحيانا بشكل ضمان يقبله المقطع ويحتفظ لنفسه بما يبقى من ايرادات اقطاعه فابن الساعى يذكر أن ضمان البصرة عقد في ٥٩٧هـ (١٢٠٠م) على الامير عمادالدين طغرل بمبلغ مائة الف وخمسة عشر الف دينار^(١٣) ثم يعود ليذكر في حوادث ٦٠٣هـ (١٢٠٦م) وفاة الامير عمادالدين طغرل بن عبدالله التركي مقطع البصرة^(١٤) ومما يؤكد ما ذهبنا اليه ان صاحب عمدة الطالب يذكر أن النقيب جلال الدين القاسم بن الزكى الثالث كان صدر البلاد الفراتية بأسرها ونقيبها أيام الناصر لدين الله وأنه حكم (قوسان) وكان قد ضمنها بغير اختياره لان ضمانها كان ثقيلًا^(١٥) •

ثانيا : يكون الاقطاع شكلا خاصا من أشكال التولية الادارية يختلف عن الضمان ويكون المقطع في هذه الحالة مسؤولا عن ارسال واردات

-
- (٩) ن . م . ص ١٣٠ •
 (١٠) الحوادث الجامعة ، ص ١٧ •
 (١١) ن . م . ص ٤٣ •
 (١٢) ن . م . ص ٢٦٤ •
 (١٣) الجامع المختصر ، ج ٩ ، ص ٤٦ •
 (١٤) ن . م . ص ١٢٥ •
 (١٥) جمال الدين أحمد بن على بن الحسين ، عمدة الطالب في أنساب آل أبى طالب ، ص ١٥٥ •

الاقطاعة الى الحكومة بعد أخذ نصيبه منها فقد ولّى الخليفة الناصر لدين الله الامير وجه السبع الكوفة اقطاعا في ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) ^(١٦) وأقطع مملوكه الامير علاء الدين تماش (الدجيل) و (دقوقا) بعد أن كان الوزير ابن مهدي قد ولى المناطق المذكورة لابن ساوى النصراني الذي أساء ادارة المنطقة فكان يأخذ لنفسه ما يريد من ايراداتها ويرسل للخليفة ما يريد ^(١٧) .

ثالثا : ان رئيس الدولة هو المقطع (بالكسر) الوحيد وقد كان الخليفة نفسه في العراق في هذا العهد وأن الاقطاع لا يستلزم دائما حكما مباشرا من قبل المقطع (بالفتح) فقد يعتمد هذا الى أنابة آخرين مكانه في الحكم وقد يعنى الاقطاع مجرد تمتع المقطع (بالفتح) بأيراد الاقطاعة دون الاشتراك في الحكم بأي شكل من الاشكال فالامير فلك الدين أحد أمراء الناصر لدين الله كان مقطوع (دقوقا) و (تكريت) و (بين النهرين) ^(١٨) في نفس الوقت وهي مناطق متباعدة منفردة عن بعضها يصعب تصور حاكمها مقيما فيها كلها في نفس الوقت ولذلك لا بد له على الاقل من انابة آخرين مكانه . ومن الجهة الثانية ورد في أخبار بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل المستقل أنه أمر الشاعر أبا الطيب ابن الحلاوى الموصلى أن يلازم مجلسه كسائر الندماء وأقطعه اقطاعا ^(١٩) . ويبدو على أقرب الاحتمال ان اقطاع الشاعر المذكور لم يكن يعنى المشاركة في الحكم .

رابعا : ان نوعية الاقطاع كانت تتوقف على ارادة المقطع (بالكسر) فقد يكون الاقطاع اقطاع تملك أى يتضمن حق توريث الاقطاعه والتمتع بايراداتها ما دام المقطع (بالكسر) راضيا عن المقطع (بالفتح) وأن هذا قد يخسرها متى شاء المقطع (بالكسر) . وقد كانت مصادرة موظفي الدولة ومن بينهم المقطعين أمرا شائعا . فالامير علاء الدين الطبرسى المعروف بالدويدار الكبير كان يحب العمارات والمتنزهات وقد أقطعه الخليفة

(١٦) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ١ قسم ٢ ، ص ٥٦٦ .

(١٧) ن . م . ج ٨ قسم ٢ ، ص ٥٣٥ .

(١٨) الجامع المختصر ، ص ٢٧ .

(١٩) ابن شاکر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج ١ ص ١٣٢ .

المستنصر بالله (قوسان) فاستجد بها أملاكاً كانت تحمل إليه حدود الثلثمائة ألف دينار^(٢٠) والمؤرخ ابن الساعى يحدثنا فى حوادث ٥٦٩هـ (١١٧٣م) عن وفاة فلك الدين الطويل الناصرى مقطع (دقوقا)^(٢١) ويعود فى حوادث ٦٠١هـ (١٢٠٤م) ليحدثنا عن القبض على الامير معين الدين قى آبه مقطع (دقوقا)^(٢٢) وفى حوادث ٦٠٢هـ (١٢٠٥م) ليحدثنا عن وفاة ابنة أرغش مقطع (دقوقا) وزوجة الامير قشتمر الناصرى^(٢٣) • بينما يشير مصدر آخر الى وفاة تنامش بن عبدالله مملوك الناصر لدين الله الذى كان قد اقطعه (دقوقا) ودجيل^(٢٤) ونقرأ فى الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة ان الامير سنقر الطويل صاحب (دقوقا) توفى فى ٦٤٤هـ (١٢٤٦م) فى عهد المستنصر بالله وان البلد المذكور كان قد اقطع لوالده فى عهد الخليفة الناصر لدين الله فلما توفى انتقلت اليه من بعده فلما توفى هذا انتقلت الى نواب الخليفة^(٢٥) • ونقل دقوقا بين مقطعين متعددين دليل واضح على امكانية انتزاع الاقطاع من ايدي المقطعين ومنحه لآخرين كما أن انتقاله الى الوارثين دليل على امكانية توريث الاقطاع فى بعض الاحيان • ان مقطعى (بالفتح) العهد العباسى الاخير الذين وردتنا أسماءهم كانوا من مماليك الخلفاء كفلك الدين الطويل الناصرى وجمال الدين طغرل الناصرى وعلاء الدين تنامش الناصرى ومجد الدين طاشتكين المستجدي وعلاء الدين الطبرسى الظاهرى وغيرهم وان أكثر الاقطاع كان من نوع الاستغلال لا التملك أى أنه موقت لا يورث كما أن النصوص الواردة عنه - أى الاقطاع - تدل أنه لم يكن خاصة اساسية للاقتصاد العام فى ذلك الحين كما كانت عليه أحوال اوروبا الغربية آنذاك كما ان سيطرة رئيس الدولة تنفى صفة الاستقلال الكامل أو الجزئى للمقطعين (بالفتح) وتشير الى أن الاقطاع

(٢٠) الحوادث الجامعة ، ص ٢٦٤ •

(٢١) الجامع المختصر ، ص ٢٧ •

(٢٢) ن • م • ص ١٥٠ •

(٢٣) ن • م • ص ١٨٠ •

(٢٤) مرآة الزمان ، ج ٨ قسم ٢ ، ص ٥٣٥ •

(٢٥) الحوادث الجامعة ، ص ٢١٥ •

كان أسلوبها اداريا مناسباً لعقلية وظروف الاحوال القائمة يضاف الى ذلك ان أحوال العراق الاقتصادية كانت طبيعية - على العموم - فالتجارة نشطة والملكيات الفردية كثيرة والسوق هو المنظم الاساسى للاقتصاد الذى كان مفتوحاً لا مغلقاً كما كانت عليه الحال فى اوربوا الغربية ♦

واذا انتقلنا الى العهد الايلخانى نجد ان ملكية الاراضى احتفظت بنفس الميزات التى كانت عليها فى العهد العباسى الاخير باستثناء فروق محدودة فالملكيات الفردية المستقلة كانت موجودة ولم نسمع أن الايلخانيين حاولوا القضاء عليها فقيس النقيب تاج الدين على بن محمد بن رمضان الذى كان صدر البلاد الفراتية حصل من الاموال والعقار والضيايع ما لا يكاد يحصى (٢٦) وعلى بن محمد بن محمد البغدادى الرفاء أقام فى قرية اسمها (برقطا) واشترى فيها أرضاً يستغل بها كفايته (٢٧) وعطا ملك جوينى حاكم العراق المشهور اضطر عند مضايقته والقبض عليه من قبل السلطان الايلخانى (أباقا) بن هولاكو ان يبيع من أملاكه وأسبابه جملة طائلة (٢٨) ♦ كما أن الاراضى الوقفية فى العراق كانت كثيرة (٢٩) وقد وضعت تحت إشراف نصير الدين الطوسى وأولاده من بعده خلال جزء كبير من العهد الايلخانى (٣٠) أما الاراضى الديوانية فتدل عليها الاقطاعات المتكررة التى كان يمنحها السلاطين المغول بين حين وآخر ولم يكن - كما يبدو - هناك أى فرق بينها وبين أملاك السلطان الخاصة ♦ وقد كانت للخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين ولافراد عائلته أملاك خاصة بهم ، وقد قتل المغول أكثرهم ولكننا لا نجد أية اشارة واضحة عما حل بأراضيهم ♦

وقد أقطع سلاطين المغول أرضين وبلادا لا قاربهم وامراءهم وغيرهم ولكن النصوص الواردة عن ذلك لا تفرق تفريقاً واضحاً بين أقطاع التملك واقطاع الاستغلال وان كان الصنفان قائمين فى دولتهم ♦ فقد نزل

(٢٦) عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب ، ص ١٦٩ .

(٢٧) الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ١٠٤ .

(٢٨) الحوادث الجامعة ، ص ٢١٥ .

(٢٩) ن . م ص ٣٣٣ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨ ، ٣٧٥ .

(٣٠) ن . م ص ٤٤٣ ، ٤٥٦ .

الامير (منكوتر بن هولاكو) جزيرة ابن عمر في ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) وكان أبوه قد أقطعها لأمه^(٣١) . وجاء (أباخان) الى العراق في ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) وأقطع (المحول) في العراق لبلغان خاتون^(٣٢) وفي كلام ابن فضل الله العمري صاحب مسالك الابصار عن أرزاق امراء المغول وجنودهم ذكر ان لكل طائفة من العسكر (أرض لنزولهم توارثها الخلف عن السلف منذ ملك هولاكو البلاد ، فيها منازلهم ولهم بها مزدراع لاقواتهم ، لكنهم لا يعيشون بالحرث والزرع)^(٣٣) وأضاف الى ذلك (والذي للامراء والعسكرية لا يكتب به مرسوم لان كل طائفة ورثت مالها من ذلك عن آبائها) ثم قال أخيرا (وأما الادارات من المبالغ والقرى فأنها تبقى لصاحبها كالمملك يتصرف فيه كيف يشاء من بيع وهبة ووقف لمن أراد)^(٣٤) وفي هذا اشارة الى ان اقطاعات السلاطين المغول لافرادهم كانت من نوع التملك . وهناك نصوص أخرى تشير الى ان اقطاعات غير هذه كانت من نوع الاستغلال فقط ، أي ان المقطع (بالفتح) كان يؤدي حصة من واردات الحكومة دون ان تكون له حقوق ملكية مطلقة . فقد أقطع السلطان (خدابنده بن أرغون) العالم الشيعي المعروف جمال الدين ابن المطهر الحلي بلادا كثيرة^(٣٥) ولم يصلنا بعد ذلك ان العالم المذكور أورثها لاحد بعده ، وقد تقبل التاجر العراقي ابراهيم محمد المعروف بالسواملي بلادا بالعراق - في هذا العهد - فكان يترفق بالرعية ويؤدي ما عليه^(٣٦) . وكتب الامير مهنا بن عيسى امير قبائل طي المقيمة في بادية الشام ، السلطان خدابنده فمنحه اقطاعا بالعراق هو مدينة الحلة وغيرها ، بينما استمر اقطاعه من سلطان المماليك بالشام وهو مدينة (سرمين) وغيرها وظل هو مقيما بالبرية لا يروح الى احدي الفتيين^(٣٧) .

-
- (٣١) تقى الدين المقرئ ، السلوك ، ج ١ ، قسم ٣ ، ص ٦٩٩ .
 (٣٢) الحوادث الجامعة ، ص ٣٧٥ .
 (٣٣) صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٤٢٥ .
 (٣٤) ن . م . ص ٤٢٦ - ٤٢٧ .
 (٣٥) البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٢٥ .
 (٣٦) الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٥٩ .
 (٣٧) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٧٣ .

ويبدو ان الاقطاع الايلخاني كان يشبه الاقطاع العباسي من حيث كونه أسلوبا في الادارة يتضمن قيام المقطع (بالفتح) بأدارة الاقطاعة وارسال وارداتها للحكومة بعد قطع جزء منها لنفسه أو تقبلها بشكل ضمان يدفعه للحكومة ويحتفظ بما يزيد عن ذلك لنفسه . ومن ذلك ما مر بنا عن التاجر العراقي ابن السواملي وما جاء في تاريخ وصاف في الكلام عن تنظيم السلطان محمود غازان لضرائب العراق سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) حيث قال أن جميع أعمال العراق كالبصرة وواسط والحلة والكوفة والنيل والاعمال الفراتية ونهر الملك ونهر عيسى ودجيل وبعقوبة وطريق خراسان وغيرها وضع خراجها بثلاثة أشكال : ففرض على بعضها خراج مقتن وأعطيت أخرى بشكل ضمان بينما جعلت الاجزاء الباقية بشكل أمانة باسم أحد أرباب الدولة أو ملوك الاطراف أو أحد مشاهير العصر^(٣٨) والصنف الاخير لم يكن الانوعا من أنواع الاقطاع .

وأن أهم فرق نجده بين الاقطاعين العباسي والايلخاني ان الايلخانيين اكثروا من أقطاع المدن والبلاد من أجل تقديم خدمة عسكرية لهم أى للدولة ، وقد مر بنا في ذلك ما أورده ابن فضل الله العمري عن اقطاع الامراء والجنود المغوليين ويشبه ذلك ان الامير زامل بن علي كان حربا على الامير عيسى بن مهنا وأنه هجم على بيوته وسار الى هولاءكو وأطمعه في بلاد الشام فأعطاه اقطاعا بالعراق فسار الى الحجاز ونهب وقتل ثم عاد الى الشام^(٣٩) . وفي ٧١٨هـ (١٣١٨م) سار الامير فضل بن عيسى الى السلطان الايلخاني أبي سعيد وقائده الكبير جوبان في بغداد ، فأعطاه هذا البصرة بينما استمرت له اقطاعاته بالشام ، وعاد الى بيوته^(٤٠) . ومثل ذلك أن خدابنده أعطى الامير مهنا بن عيسى أمير العرب في بادية الشام ، البلاد الفراتية^(٤١) .

(٣٨) تاريخ وصاف ، ج ٤ ، ص ٤٠٢ .
 (٣٩) المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٥٣٥ .
 (٤٠) المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٨٥ .
 (٤١) الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٣٧٠ .

الضرائب

يمكن تصنيف الضرائب العباسية خلال نصف القرن الاخير من تاريخ الدولة الى شرعية وغير شرعية فالاولى تتكون من ضريبة الارض أو الخراج والجزية أو ضريبة الرؤوس على أهل الذمة والصدقات وضرائب أخرى كأخماس المعادن وأخماس سيب البحر وضرائب على الصادرات والواردات وارث الميت الذى لا وارث له أما الضرائب غير الشرعية فقد كانت كثيرة ومتنوعة تأتي بأسماء غامضة أحيانا وهى أكثر تعرضا من غيرها لاهواء الحكام ونزواتهم وقد كانت أهمها ضرائب الاسواق والحوانيت والتجارة الداخلية والمواريث يضاف الى ذلك تعمد الحكومة أحيانا انقاص نسبة المعادن الثمينة من النقود ومصادرة موظفيها والاستيلاء على أموالهم وملكياتهم • كان الخراج هو الضريبة الرئيسة وهو ما كان يفرض على الارض وقد أصبحت أكثرية بلاد العراق خراجية في أواخر العهد العباسي وكان الخراج في أصله يجرى تبعا لمساحة الارض ثم أصبح بالمقاسمة منذ أيام الخليفة المهدي وقد جعل الخليفة المأمون مقاسمة أهل السواد الخمسين بعد أن كانت النصف أيام الرشيد • أما الجزية فهى ضريبة الرؤوس على أهل الذمة مقابل حمايتهم واعفائهم من الخدمة العسكرية وقد كان الصائبة معفون منها في آخر هذا العهد حتى كأنهم في ذلك في حكم المسلمين^(١) • وقد وردتنا بعض الضرائب غير الشرعية بأسماء غير واضحة المعنى كالمؤن التى يرى الاستاذ العزاوى بأنها كانت في أصلها هدايا اكتسبت مع مرور الزمان شكل رسوم مقررة^(٢) • ولكننا نميل الى الاعتقاد انها ضرائب على المبيعات في الاسواق^(٣) • وهناك

(١) الحوادث الجامعة ، ص ٦٩ •

(٢) عباس العزاوى ، تاريخ الضرائب العراقية ، ص ٢٢ •

(٣) أنظر الحوادث الجامعة ، ص ١٦٢ •

ما يسمى بالتقييدات^(٤) التي لم نجد لها تفسيراً ولكن يبدو أنها قروض اجبارية تفرضها الحكومة بشكل أقساط ومثل ذلك البلولات^(٥) وهي ضرائب لم نجد لها تفسيراً أيضاً • يضاف الى ذلك ان انقاص المعادن الثمينة من النقود كان يؤدي الى ارباك الحياة الاقتصادية وارتفاع الاسعار^(٦) ويمكننا اعتبار هذه العملية ضريبة مباشرة غير نظامية لها خطرهما وأهميتها شأنها شأن المصادر^(٧) التي كانت تجلب للحكومة واردات مفيدة ولكنها تشعر الناس بعدم الطمأنينة على ملكياتهم •

كانت الضرائب في كثير من الاحيان عرضة لنزوات الحكام وأهواءهم من حيث كمياتها وأنواعها يستوى في ذلك الشرعية منها وغير الشرعية فابن الاثير وهو مؤرخ معاصر مطلع يحدثنا ان الخليفة الناصر لدين الله احدث الكثير من الرسوم الجائرة حتى أنه رفع خراج بعقوبا من عشرة آلاف الى ثمانين ألف دينار سنوياً وانه كان يأخذ أملاك الناس وأموالهم فخرّب العراق في عده وتفرق اهلّه في البلاد فلما جاء ابنه الظاهر بأمر الله أمر بأعادة الامور الى سيرتها الطبيعية قبل أبيه والغي الضرائب الجائرة واعاد الكثير من الاموال المغتصبة في أيام أبيه الى اهلها^(٨) •

وعندما ضم الخليفة المستنصر بالله أربل الى مملكته في ٦٣٠هـ (١٢٣٢م) ارسل الامير باتكين بن عبدالله الرومي واليا عليها فأطلق هذا معظم الضمانات وأزال المكوس والضرائب^(٩) • ولكن يبدو ان الخليفة المستنصر عاد الى رفع الضرائب من جديد لان ولده وخليفه المستعصم بالله أمر في أول توليته في ٦٤٠هـ (١٢٤٢م) بأزالة ما أحدثه عمال السوء من المكوس

(٤) ن . م . ص ١٦٢ : العزاوي ، تاريخ الضرائب العراقية ، ص ٢٢ .

(٥) الحوادث الجامعة ، ص ١٦٢ .

(٦) ن . م . ص ٧٠ .

(٧) ن . م . ص ٣٤ ، ١٠٣ ، ١٩٨ : عمدة الطالب ، ص ١٥٥ .

(٨) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٨١ - ١٨٣ .

(٩) الحوادث الجامعة ، ص ١٨٢ .

والتقسيطات والمؤن والباولات وقد أخذ الوزير حاجب باب النوبى معه عند صدور هذا الامر خوفا عليه من العوام لانه كان المسؤول عن أخذ المؤن ولانها حدثت في زمانه^(١٠) .

أما أسلوب جباية الضرائب فيبدو أنه كان على ثلاثة أنواع هى : الضمان والاقطاع والجباية المباشرة ويبدو ان الضمان كان كثير الشيوع فى جباية الخراج والجباية المباشرة هى الاسلوب السائد فى جباية الجزية والكثير من الضرائب غير الشرعية وكان للجزية ديوان خاص يسمى بديوان الجوالى يأتى اليه كل ذمى بنفسه حيث توزن له جزيته ويكتب له بها^(١١) . وقد كان الضمان سببا فى الزيادة من أعباء الضرائب على دافعيها وفى سلب أموالهم وأملاكهم من قبل الضامنين فى كثير من الاحيان فمن ذلك أن وزير الخليفة الناصر لدين الله المسمى ناصر بن مهدي ضمن قوسان للنتيب زكى الدين بمائة وعشرين ألف دينار ذهباً وهو أضعاف ضمانها السابق فعمل هذا على التهرب من الامر ولكن ابنه جلال الدين القاسم تقبله وخرج الى قوسان وعسف بالناس بشكل لم يسمع بمثله من قبل مثل ذلك زرعه ضياع بعض الناس واستيلاؤه على جميع ما حصل فى احدى القرى التى كانت له عداوة مع أهلها وتشدده معهم وأهانتهم وقد حمل جميع ما حصل عليه هناك من الغلات وحرزها والتمس من الوزير أن يمنع بيع الغلات والحبوبات مدة عشرة أيام فأجيب الى ذلك فارتفعت الاسعار حتى باع كل ما لديه خلال أسبوع ووفى ضمانه وربح لنفسه الكثير^(١٢) .

وقد كانت ضرائب العهد الايلخانى المغولى استمرارا للضرائب العباسية عدا بضعة ضرائب أهمها المساعدات الاجبارية والقروض الاجبارية التى يحتمل أنها استحدثت فى هذا العهد واذا أردنا تعدادها نجدها بالشكل الآتى: ضريبة الارض أو الخراج وضريبة الرؤوس وضريبة البيوت ولعقارات والضريبة على ما يباع فى الاسواق والقبجور والتمغات وحصة الديوان من

(١٠) ن . م . ص ١٦٢ .

(١١) ن . م . ص ١٣ .

(١٢) عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب ، ص ١٥٥ .

الاقواف وما كانت تحصل عليه الحكومة من غش النقود ومصادرة الموظفين وأخيرا ما كان ينفقه أصحاب الدور على الجنود الذين كانت تفرض اقامتهم عليهم أحيانا •

فالعراج وهو ضريبة الارض القديمة كان يؤخذ بالمقاسمة بنسبة الخمسين باستثناء النخل والشجر التي كان يؤخذ منها حسب المساحة^(١٣) • وقد كان يحسب طبقا للسنة الشمسية مما كان يزيد البون اتساعا بين السنة الخراجية والسنة الهلالية حتى أن سنة ٦٩٤ الخراجية كانت تساوى سنة ٧٠٢ هـ الهلالية^(١٤) أما ضريبة الرؤوس أو الجزية التي كانت تفرض على أهل الذمة فقط أيام العباسيين فأنها أصبحت تشمل الجميع دون تمييز بعد دخول العراق ضمن الدولة الايلخانية حتى أننا نسمع أن الاوامر صدرت في ٦٥٧ هـ (١٢٥٨م) بجمع أهل بغداد وتقرير ما يؤديه كل منهم فى كل سنة على قدر حاله ما عدا الشيخ الكبير ومن هو غير بالغ^(١٥) • وهناك الضريبة المتمثلة بنقل أرث الميت الذى لا وارث له الى بيت المال والضريبة على التركات التي نجهل مقدارها ولكننا نعرف وجودها فى أوائل العهد الايلخانى من إشارة عطا ملك جوينى الذى حكم العراق بين ٦٥٧ هـ - ٦٨١ هـ (١٢٥٨م - ١٢٨٢م) حيث يقول (عندما عهد لى هولاكو أمر حكم العراق وجدت ضرائب الارث تؤخذ فى تلك المنطقة بأجمعها ولكننى ألغيتها •)^(١٦) يضاف الى ذلك أننا نجد اشارة الى ديوان للتركات فى حوادث سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣م)^(١٧) مما يؤيد وجود ضريبة أو مجموعة ضرائب على التركات فى هذا العهد •

(١٣) ابن الطقطقى ، الفخرى فى الآداب السلطانية (طبعة شالون)

ص ٢٤٧ •

(١٤) تاريخ وصاف ، ج ٤ ، ص ٤٠٢ •

(١٥) الحوادث الجامعة ، ص ٣٣٩ •

(١٦)

'Ald - ad - Din 'Ata Malik Juvaini, The History of the World Covqueror, Travslated by John A. Boyle, Vol. I., p. 34.

(١٧) الحوادث الجامعة ، ص ٤٧٨ •

وفيما عدا ذلك نسمع لأول مرة في أخبار العهد الايلخاني في العراق بضرية على البيوت والعقارات جاءت في ٦٧٧هـ (١٢٧٨م) في أمر ورد الى والي العراق عطا ملك جويني بأثبت الدور في بغداد ومطالبة أربابها بالاجرة عنها شهرين^(١٨) . ونسمع في أخبار نفس السنة بضرية على المبيعات باسم المؤونة حيث باع أحد أهل السواد كارة من الدخن بدرهم طولب بالمؤونة عنها درهمين ولذلك تركها وانهزم^(١٩) . وقد ورد ذكر الضرية على المراعي أو ما يسميها المغول بالقبجور أو القيجور في حوادث سنة ٦٤٩هـ (١٢٥١م) فقد رفع امراء المغول الامبراطور الجديد (مونغا) على سريبر المملكة فأمر بعد ان فرغ خاطره من أمر المخالفين وتعيين الولاة ان يؤخذ من مراعي ذوات الاربع وتسمى قويجور من كل من له مائة رأس رأس واحد ومن ليس له مائة لا يؤخذ منه^(٢٠) . ومعنى ذلك أن الضرية كانت واحدا بالمائة ولكننا لم نعر بعد وقائع السنة المذكورة وقد سبقت فتح العراق ببضعة سنين على ما يشير الى جباية مثل هذه الضرية في العراق^(٢١) . وهناك ضرية التمغات وليس لدينا ما يلقي ضوءاً على طبيعتها ولكن يبدو أنها كانت مجموعة من الضرائب المفروضة على التجارة الداخلية في المدن وقد كان هناك ضامن لتمغات بغداد^(٢٢) في هذا العهد وكان من جملة الاعمال المشكورة التي قام بها السلطان (أبقا بن هولاكو) عند وروده بغداد في ٦٧٢هـ (١٢٧٣م) أصدره الاوامر بالاحسان الى الرعية وتخفيف التمغات وحذف الاثقال عنهم^(٢٣) . وبينما يرى الاستاذ الغزاوي ان التمغات ضرية على الاموال التجارية الداخلية اتخذت هذا الاسم بسبب السمة التي كانت

(١٨) ن . م . ص ٣٩٨ .

(١٩) ن . م . ص ٤٠٤ .

(٢٠) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٥٩ .

(٢١) لم يرد في الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة ، وهو أوسع المصادر الاولية عن تاريخ العراق في القرن السابع ما يشير الى وجود هذه الضرية في العراق .

(٢٢) الحوادث الجامعة ، ص ٤٥٨ .

(٢٣) ن . م . ص ٣٧٥ .

توضع بدلها على الاموال وتسمى تمغا^(٢٤) يفسرها الاستاذان M. Minovi V. Minorsky بأنها ضريبة بنسبة $\frac{1}{4}$ كانت توضع على رأس المال وأنواع أخرى عديدة من ضرائب كانت تفرض في المدن^(٢٥) • وفيما عدا هذا نقرأ عن ضرائب كانت تجبى من الناس بالقوة وترد تحت اسم المساعدات والقروض وكانت تنزل على الناس بشكل مفاجئ بين حين وآخر^(٢٦) • وهناك مصادرات موظفي الحكومة بمختلف درجاتهم واختصاصاتهم وكانت كثيرة الوقوع وغير محدودة في كميتها تصل أحيانا الى حد الاستيلاء على كل ما يملكه الموظف وتعريض حياته نفسها الى الخطر^(٢٧) • وحصة الحكومة من أموال الاوقاف وليس لدينا ما يحدد كميتها وان كانت النصوص الاولى تثبت وجودها^(٢٨) • وهناك ضرائب كانت تفرض على الغزل وأماكن بيع الخمر وعلى محلات الفاحشة^(٢٩) وأخرى تتمثل بتلاعب الحكومة بالنقود بأصدارها عملات تقل فيها نسبة المعادن الثمينة وقد أمر السلطان محمود غازان عند وروده العراق في ٦٩٨هـ (١٢٩٨م) بأن يعفى الذهب والفضة من الغش وتضرب الدراهم متساوية^(٣٠) • ولابد لنا أخيرا ان نعد بين الضرائب ما كانت تلجأ اليه الحكومة أحيانا من فرض الجنود على البيوت^(٣١) • بالزام أهلها أمر النهض بما يحتاجون اليه من الطعام وغيره • أما أسلوب جباية الضريبة في هذا العهد فيبدو لنا أنه كان على ثلاثة أنواع هي الضمان والحماية المباشرة والاقطاع ، فالضمان كان يتم بتعهد أحد الناس تقديم مبلغ معين للحكومة عن منطقة من المناطق مقابل جبايته

(٢٤) عباس العزاوي ، تاريخ الضرائب العراقية ، ص ٣٥ •

(٢٥)

“Nasir - al - Oin Tusi on Jinonce,” B. of S. of O. S., Vol. 10, p. 78.

(٢٦) الحوادث الجامعة ، ص ٣٩٨ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ ، ٤٥٠ •

(٢٧) ن • م • ص ٣٤٩ ، ٣٨١ ، ٤١٥ •

(٢٨) ن • م • ص ٤٤٣ •

(٢٩) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ١١٧ •

(٣٠) الحوادث الجامعة ، ص ٤٩٨ •

(٣١) ن • م • ص ٤٤٣ •

صرائبها لنفسه والاقطاع هو أن تقطع المنطقة أو المدينة أو غيرها لاحد الافراد مقابل دفع حصة معينة متفق عليها من ضرائبها للحكومة أما الجباية المباشرة فهي ان يكون للحكومة موظفون مربوطون بها يقومون بجباية الضرائب طبقا لوامرها • وقد ورد ما يشير الى هذا فيما ذكره تاريخ وصاف في ان السلطان محمود غازان نظم ضرائب العراق في سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) فجعل خراجه بثلاثة أشكال ففرض على بعض أراضيه خراجا مقننا وأعطى أخرى بشكل ضمان وعهد الباقي بشكل أمانة باسم أرباب الدولة أو ملوك الاطراف أو أحد مشاهير العصر كما نظمت أعمال التمغا والكارخانة والخالصات والمقاطعات على حده وفوضت على نفس الشكل وأصبح كل شخص يعرف ما يقع له دون ان يختلط ما يقع تحت مسؤوليته بمسؤولية غيره وطلب من جباة الضرائب الاستمرار على هذه القاعدة في المستقبل • (٣٢).

ويبدو أن الضمان كان أكثر الاساليب شيوعا في جباية الخراج وضرائب الاسواق والتمغات والخمر والفاحشة وهي ضرائب مستقرة الى حد بعيد والجباية المباشرة الوسيلة المتبعة في استحصال ضرائب المساعدات الاجبارية والقروض الاجبارية والضرائب على البيوت والعقارات وغيرها من الضرائب التي لم تكن ثابتة مستقرة • ويبدو أن صاحب ديوان العراق أو واليه هو الضامن العام لضرائب الذي يقدمها للحكومة المركزية ويحتفظ لنفسه بقدر كبير منها بينما يقوم بدوره بضمان ضرائب كل منطقة الآخرين يتعهدون بتقديم ما يجب عليهم ويحتفظون بالباقي لانفسهم ومن ذلك أن صاحب علاء الدين عطا ملك جويني فوض اليه أمر العراق وخوزستان على سبيل الضمان^(٣٣) • وعقد ضمان العراق في ٦٩٨هـ (١٢٩٨م) على أمام الدين يحيى القزويني البكري^(٣٤) وضمنت الاعمال الواسطية لفخر الدين مظفر بن الطراح في ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) والاعمال الحلية لمجد الدين

(٣٢) تاريخ وصاف ، ج ٤ ، ص ٤٠٢ •

(٣٣) ن . م . ج ١ ، ص ٩٥ •

(٣٤) الحوادث الجامعة ، ص ٤٦٨ •

اسماعيل بن الياس فى ٦٨٦هـ (١٢٨٧م) (٣٥) •

وإذا استعرضنا وقائع العهد لایلخانى نجد أن ضرائبه كانت ثقيلة من حيث الكمية الى حد ان الضمء أنفسم كانوا يعجزون عن دفعها أحيانا وأنها كانت كيفية فى كثير من الوجوه تخضع من حيث الكمية والنوعية ووقت الجباية لارادة الحاكم أو الضامن أو جابى الضريبة نفسه وأن طريقة الضمان كان يعقبها على الاكثر جباية الضامن الكثير من المال لنفسه اضافة لما هو مكلف بدفعه للحكومة وأن الفساد كان شائعا بين الحكام وجباة الضريبة الى حد كان يجعل أكثر الاموال فى أكثر الاحوال لا يصل الى خزينة الحكومة ولعل ذلك كان من جملة الاسباب التى دفعتها الى مصادرة الحكام والضمء والجباة وتعذيبهم والفتك بهم حيث تعتمد غرض النظر عن تصرفاتهم من أجل اتخاذهم اسفنجة تمتص بواسطتهم أقصى ما تستطيعه من أموال دافعى الضرائب للاتفاق على حاجات الدولة وسلاطينها وأمرائها ، وقد اعترف السلطان محمود غازان فى ديباجة القانون الذى أصدره فى ٧٠٣هـ (١٣٠٣م) لاصلاح أحوال الضرائب فى الامبراطورية الایلخانية بأن جباة الضرائب كانوا يأخذون اضعاف ما هو مطلوب منها من الناس تحت أنواع من العلل والاسباب والاسماء لكونها - أى الضرائب - لم تكن محددة بصورة مفصلة واعترف كذلك بأن أكثر ما كان يجبى من الضرائب لم يكن يصل الى بيت المال • وقد جاء فى نص القانون المذكور بأن الغاية من اصداره هى تعيين وتقرير أموال الممالك وأحوالها ودفع الجور وأنواع الكلف الديوانية وازالة الضرائب الزائدة التى كان يجمعها الجباة لانفسهم وان موظفى الضرائب أرسلوا الى جميع الممالك ليقوموا بتحديدھا وتفصيلھا فى كل ولاية ومدينة وقرية لكى لا يظل هناك مجال للجباة بأخذ مبلغ أكثر منها وأن ميعاد دفع الضرائب سوف يحدد وكمياتھا سوف تقرر وثبت (٣٦) • ونحن نشكّ باستمرار تطبيق هذا القانون بعد غازان •

(٣٥) ن • م • ص ٤٥٣ - ٤٥٤ •
(٣٦) داستان غازان ، ص ٢٥٧ - ٢٦٤ •

والخراج وهو أكثر الضرائب تحديدا واستقرارا ضعف من قبل جمال الدين
الدستجرداني وصدر الدين الخالدي أصحاب الديوان وأن الاول منهما
أجبر أهل العراق في ٦٩٥ هـ (١٢٩٥م) على دفعه ذهبا فأعاده غازان الى
ما كان عليه سابقا في السنة التالية كما أمر بقتل صدر الدين الخالدي في
٦٩٧ هـ (١٢٩٧م) لمضاعفته الخراج ومبالغته في المصادرات والتثقيلات (٣٧) .
وقد كان يحدث ما يشبه ذلك فيما يتعلق بالضرائب الاخرى ففي ٦٧٧ هـ
(١٢٧٨م) صدر الامر لعلاء الدين عطا ملك جويني بأثبات الدور في بغداد
فأثبتت وطولب أصحابها بالاجرة - أي الضريبة - عنها شهرين وفي
٦٨١ هـ (١٢٨٢م) طولب أهل بغداد بأجرة أملاكهم عن ثلاثة أشهر
واستوفيت الضريبة من أكثرهم ولكن الامر صدر بعد قليل من ذلك
باعفاهم جميعا ثم صدر في السنة التالية بوجوب دفعهم الضريبة عن مساكنهم
باعفائهم جميعا ثم صدر الامر في السنة التالية بوجوب دفعهم الضريبة عن
مساكنهم عن ثلاثة أشهر (٣٨) . وقد فرضت ضريبة الرأس على أهل بغداد في
٦٥٧ هـ (١٢٥٨م) وذلك بأن يدفع كل على قدر حاله ما عدا الشيخ الكبير وغير
البالغ ولكن علاء الدين عطا ملك جويني ألغاها عند مجيئه الى بغداد واليا
عليها في نفس السنة (٣٩) . ولم نعد نسمع عنها بعد ذلك . وقد طلبت الحكومة
مساعدة مالية من بغداد وأعمالها في ٦٧٧ هـ (١٢٧٨م) جيت بالعسف والقوة
فأدت بالناس بالاضافة الى ضريبة الدور التي طلبتها في نفس السنة الى
الاختفاء وغلق الاسواق فطولبت النساء بما قرر على رجالهن ولم ينج من
ذلك حتى العلويين والقضاة والعدول (٤٠) . وألزم الامير أرغون بن اباقا ،
أهل بغداد ، وقد حضرها في ٦٨١ هـ (١٢٨٢م) بالمساعدة وأحضر قاضي
القضاة عز الدين بن الزنجاني وقرر عليه وعلى العدول عشرة آلاف دينار

(٣٧) الحوادث الجامعة ، ص ٤٩٣ - ٤٩٥ .

(٣٨) ن . م . ص ٣٩٨ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ .

(٣٩) ن . م . ص ٣٣٩ .

(٤٠) ن . م . ص ٣٩٨ .

واستوفيت الضريبة من الناس بالقوة وكان كل من اختفى من الناس نهبت داره وما فيها وجرى مثل ذلك على نواب الاعمال الحلية والواسطية والبصرية^(٤١) وفي ٦٨٢ هـ (١٢٨٣ م) وصل شرف الدين هرون بن الصاحب شمس الدين محمد الجويني كصاحب لديوان بغداد والزم تجار بغداد بالقرض والمساعدة وضيقوا على ذلك^(٤٢) . وفي ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) في عهد السلطان أرغون ، وضع والى بغداد قتلغ شاه بن سنجر أموالا على أهل المدينة على وجه القرض قسطها عليهم وتشدد في جبايتها ولكنها أسقطت عنهم بعدئذ بوصول حكام آخرين أرسلوا لتصفح أحوال العراق^(٤٣) . وفي ٦٩٤ هـ (١٢٩٤ م) كلف أرباب الاموال من أهل بغداد والتجار والتناة وغيرهم بدفع أموال على وجه المساعدة وحمل ذلك الى السلطان بايدو^(٤٤) .

وبينما نجد الكثير من حكام العراق يجمعون الاموال لانفسهم حتى تبلغ مقادير كبيرة يحجبون الكثير منها عن خزينة الدولة نجد آخرين يعجزون عن دفع ما هو مقرر عليهم لثقله ففي ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) وثى حكام العراق بصاحب الديوان علاء الدين عطا ملك جوينى الى هولاءكو بأنه حصل لنفسه أموال كثيرة فأمر بتقريره فثبت عليه ذلك فأمر بقتله ولكنه عاد فعفا عنه^(٤٥) . وفي ٦٦٠ هـ (١٢١٦ م) رفع الى هولاءكو أن عماد الدين القزوينى أحد حكام بغداد قد اسوعب لنفسه الاموال فأمر بالفحص عنه فثبت عليه التهمة فأمر بقتله^(٤٦) . وفي ٦١٦ هـ (١٢٦٢ م) قتل شحنة بغداد على بهادر وقبض على وكيله على بن عبدوس وثقل بالحديد وطولب بالاموال فأدى عشرة آلاف دينار^(٤٧) هذا من جهة ومن جهة أخرى قدم الامير أرغون

(٤١) ن . م . ص ٤٢٤ .

(٤٢) ن . م . ص ٤٣٠ .

(٤٣) ن . م . ص ٤٥٠ .

(٤٤) ن . م . ص ٤٨٢ - ٤٨٣ .

(٤٥) ن . م . ص ٣٤٣ .

(٤٦) ن . م . ص ٣٤٨ .

(٤٧) ن . م . ص ٣٥٠ .

الى العراق في ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) وأمر بعمل حسابه فتخلف على الضمناء
شيء كثير ضويقوا عليه^(٤٨) . وفي ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) عذب الزين الحظائري
ضامن تمغات بغداد فأدى مالا كثيرا وباع أملاكه وأسبابه ليقوم بما تخلف
عليه من ضمان الحلة^(٤٩) . وفي ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) عذب نجم الدين كاتب
الجريد على بقايا وجبت عليه فلما أحس العجز من نفسه عن الدفع قتل
نفسه^(٥٠) . وفي نفس السنة عقد ضمان الاعمال الحلية على مجد الدين بن
الياس أضافة الى نيابة الديوان والحكم في بغداد فكان ذلك ، سببا لذهاب
أمواله وأملاكه^(٥١) .

(٤٨) ن . م . ص ٤٢٤ .

(٤٩) ن . م . ص ٤٥٤ .

(٥٠) ن . م . ص ٤٥١ .

(٥١) ن . م . ص ٤٥٣ .

النظام النقدي

كان التعامل في العراق خلال السنين الاخيرة من العهد العباسي يقوم على أساس مزدوج هو الدينار الذهبي والدرهم الفضي وكانت العادة أن الدينار يساوي مثقالا من الذهب والدرهم سبعة أعشار المثقال من الفضة وقد كان الدينار كذلك في ٦٥١هـ (١٢٥٣م)^(١) وكانت النسبة تتذبذب بين العملتين بين العشرة الى الاثنى عشر درهما لكل دينار ولكنها كانت أكثر استقرارا حول الرقم الاخير^(٢) ويبدو أن سبب ذلك يعود لكمية الذهب والفضة المتوفرة في السوق ونسبة المعدن الثمين في كل منهما وكانت القراضة أو الدنانير المكسورة شائعة الاستعمال في السوق مما كان يسبب معاملات تقرب من الربا ولذلك منع الخليفة المستنصر التعامل بها في ٦٣٢هـ (١٢٣٤م) وأصدر مكانها دراهم فضية جديدة تساوي كل عشرة منها دينارا واحدا ، ولكن العملة الجديدة أدت كما يبدو الى طرد العملة الجيدة أي الذهبية من السوق فكثرت الدراهم في أيدي الناس وهبط لذلك سعرها في السوق وعاد الناس الى استعمال القراضة من جديد^(٣) .

وتقدم لنا مجموعة مسكوكات المتحف العراقي حقائق مفيدة فنماذج الدينار العباسي تختلف من حيث الوزن والقطر حتى ما صدر فيها في عهد الخليفة الواحد نفسه • فهناك دينار من عهد الخليفة الناصر لدين الله من وزن ٢١٦٢ غم وقطر ٢٦ مم أصدر في سنة ٥٩٣هـ (١١٩٦م) وآخر من وزن ٣٣٥١ غم وقطر ٢٨ مم أصدر في سنة ٥٩٩هـ (١٢٠٢م) وآخر من وزن ١١٥ غم وقطر ٢٨ مم أصدر في سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) وآخر من وزن ٢٧٦٥ غم وقطر ٢٨ مم أصدر سنة ٦٠١هـ (١٢٠٤م) وهناك دينار واحد يعود لعهد الظاهر بأمر الله من وزن ١٦٠٠ غم وقطر ٢٧ مم أصدر

(١) الحوادث الجامعة ، ص ٢٦٨ .

(٢) ن . م . ص ٧٠ ، ٢٢٣ .

(٣) ن . م . ص ٧٠ ، ٢٢٣ .

سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) وآخر من عد المستنصر بالله من وزن ٤٨٣٠ غم وقطر ٢٦ مم أصدر سنة ٦٢٣هـ (١٢٢٦م) ومن عهد المستنصر هناك دينار من وزن ٤٨٣٠ غم وقطر ٢٨ مم أصدر سنة ٦٤٠هـ (١٢٤٢م) وآخر من وزن ٧٨١٢ غم وقطر ٢٧٦ مم أصدر سنة ٦٤١هـ (١٢٤٣م) وآخر من وزن ١٠٨٨٤ ر ١٠ غم وقطر ٢٧٩ مم أصدر سنة ٦٤٣هـ (١٢٤٥م) • أما نماذج الدرهم لفضى فلدينا أحدها من وزن ٢٨٥١ غم وقطر ٢١ مم أصدر فى سنة ٦٣٨هـ (١٢٤٠م) وآخر من وزن ٢٨٥٢ غم وقطر ٢١ مم أصدر فى سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١م) وكلاهما يعودان لعهد المستنصر بالله وهناك درهم من وزن ٨٨٨ ر ٥ غم وقطر ٢٨ مم أصدر سنة ٦٤٤هـ (١٢٤٦م) أى فى عهد المستنصر بالله •

وقد ضربت النقود المذكورة فى بغداد وكان يشار إليها باسم (مدينة السلام) والكوفة وأربل • وتبدو الكتابة المنقوشة عليها متقاربة يتلخص أكثرها بذكر اسم الخليفة القائم ثم عبارات الشهادة مثل (الامام الناصر لدين الله ، لا اله الا الله وحده لا شريك له ، الناصر لدين الله أمير المؤمنين) على الوجه ، وكلمات : (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) على القفا • واكثر هذه المسكوكات بسيطة فى نقوشها ولكن الكتابات كثيرة فيها على الوجه والقفا والاطواق^(٤) •

أما فى العهد الايلخانى فإن التعامل ظل فى العراق مثلما كان عليه فى العهد العباسى الاخير يقوم على أساس الدينار الذهبى والدرهم الفضى وأجزاءها • وأهمها الفلوس وهو عملة نحاسية صغيرة • وقد حدث فى ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) أن أبطلت الفلوس النحاسية وأصدرت مكانها فلوس من فضة كل اثنى عشر فلسا منها بدرهم سميت دناكشر أبطلت فى السنة التالية وأعيدت الفلوس النحاسية من جديد^(٥) • ويبدو أن العملة كانت تؤخذ على أساس الوزن حيناً والعدد حيناً آخر والوزن والعدد فى بعض الاحيان

(٤) مجموعة مسكوكات المتحف العراقى •

(٥) الحوادث الجامعة ، ص ٤٣٠ - ٤٣١ •

فقد أمر صاحب علاء الدين ، صاحب ديوان العراق ، في ٦٦٦هـ (١٢٦٧م) بضرب فلوس من النحاس تؤخذ كل أربعة وعشرين فلساً منها بدرهم وكل خمسة أرتال بدينار^(٦) وفي ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) ضربت دراهم جديدة صدر الامر بالتعامل بها عدداً مثل الدراهم الالبغانية^(٧) التي هي - كما يبدو - دراهم السلطان (أبغا بن هولاكو) • وقد كانت النسبة بين الدينار والدراهم غير مستقرة بل تتذبذب تبعاً لسعر الصرف ، ففي ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) أبطلت الدراهم السائدة وضرب مكانها دراهم جديدة من نوعين الاول كل عشرة مثاقيل بدينار والآخر كل اثني عشر مثقالاً بدينار^(٨) • وقد كانت في الموصل في هذا العهد دراهم تتكون من مزيج من النحاس والفضة ، تسمى الدراهم السواد كل أربعين درهماً منها بدينار ، أبطلت في ٦٦٠هـ (١٢٦١م) ، وضربت مكانها دراهم نقرة أي فضية وفلوس^(٩) • ويشير ابن فضل الله العمري الذي عاصر أواخر العهد الایلخاني الى ان الدينار في العراق ، كان من نوعين ، العوال وهو اثني عشر درهماً كل درهم قيراطان وحبثان وكل قيراط ثلاث حبات وكل حبة أربعة فلوس والنوع الثاني الدينار المرسل وكان يساوي عشرة دراهم وكانت به أكثر معاملات أهل بغداد وتجارها^(١٠) •

ويبدو أن مشكلة العملة في العراق في هذا العهد تشبه مشكلتها في الولايات الایلخانية الأخرى ، فالعراق لم يعد دولة مستقلة لها حكومتها الخاصة بها التي هي السلطة الوحيدة التي تصدر النقود فيها ، بل أنه أصبح ولاية في امبراطورية واسعة كل ولاية منها تصدر النقود في مراكز متعددة ولم تكن العملة في مختلف الولايات من نفس الوزن والحجم والنقاوة فكل

(٦) ن . م . ص ٣٥٨ •

(٧) ن . م . ص ٤٤٦ •

(٨) ن . م . ص •

(٩) ن . م . ص ٣٤٨ •

(١٠) مسالك الابصار للعمري ، كما ورد في صبح الاعشى ، ج ٤ ،

ص ٤٢٢ •

من سلاطين الاطراف وملوكها في بلاد الروم وخراسان وفارس وكرمان والجزيرة والعراق العربي وغيرها يصدر عملة كان منها الجيد ومنها الرديء الرخيص وكان الناس يخسرون القليل والكثير نتيجة لاضطراب العملة وكثرة الرخيص منها وكان التجار يتجافون مناطق العملة الرخيصة ويتطلبون العملة الجيدة^(١١) . ولذلك عمل السلطان غازان على توحيد العملة في جميع أنحاء الامبراطورية الایلخانية واصلاحها وضمان سلامتها من الغش^(١٢) . ومن ذلك أنه عندما وصل بغداد في ٦٩٨ (١٢٩٨م) أمر بضرب دراهم متساوية الوزن يتعامل بها الناس عددا وزن الواحد منها نصف مثقال ودراهم أخرى وزن الواحد منها ثلاثة مثاقيل وأخرى وزن الواحد منها مثقال واحد ويكون كل مثقال من الذهب يساوي أربعاً وعشرين درهماً من الدراهم الاعتيادية كما أنه أمر بضرب عملات أخرى من الذهب من وزن خمسة مثاقيل وثلاثة مثاقيل ومثقالان ومثقال ونصف وربع مثقال وأمر أن يعمل مثل هذا في جميع ممالك الامبراطورية^(١٣) .

وفيما عدا الدينار والدرهم كانت هناك عملة مغولية متداولة في الصين تسمى البالش ، من الذهب والفضة والورق^(١٤) ليس هناك ما يثبت تداولها في العراق في العهد الایلخاني . وقد أصدر السلطان (كيخاتو) عملة ورقية في ايران في ٦٩٣هـ (١٢٩٣م) من فئات نصف درهم الى عشرة دنانير عليها اسمه^(١٤) . أجبر الناس على تداولها فاضطربت بسببها معاملاتهم وارتبكت أحوالهم الاقتصادية وأغلقوا حوانيتهم وقد أرسلت عدة أحمال منها الى بغداد مع الامير (لكزى بن أرغون آقا) ولكن خبرها وصل المدينة قبلها فاضطربت له واستعدت بالاقوات ولكن السلطان أبطلها قبل وصولها اليها^(١٥) فأمن الناس شرها .

(١١) داستان غازان ، ص ٢٨٢ .

(١٢) ن ٠ م ٠ ص ٢٨٢ - ٢٨٦ .

(١٣) الحوادث الجامعة ، ص ٤٩٨ .

(١٤) تاريخ وصاف ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(١٥) الحوادث الجامعة ، ص ٤٧٧ - ٤٧٨ .

كانت العملة تصدر خلال العقود الاولى من العهد الايلخاني باسم الخاقان رأس الامبراطورية المغولية كلها ، ومن ذلك أن نقود هولالكو تحمل اسم الامبراطور وتحت اسم هولالكو ، ولكن (أبغا) ابن وخليفة السلطان المذكور أبطل ذلك بعد مدة قصيرة من حكمه ووضع اسمه وحده وفعل مثل ذلك خلفاءه^(١٦) . واذا عدنا الى نماذج العملات الايلخانية المتوفرة في المتحف العراقي نجدها تتمثل فيما يأتي : هناك دينار من عهد هولالكو من وزن ٣ر٩٥٠ غم وقطر ٢٧ مم ضرب في ٦٥٨هـ (١٢٥٩م) وآخر من وزن ٤ر٨٠٠ غم وقطر ٢٦ مم أصدر في ٦٧٢هـ (١٢٧٣م) من نفس العهد وآخر من عهد محمود غازان من وزن ٧ر٧٩٠ غم وقطر ٢٥ مم أصدر سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٣م) وآخر من عهد السلطان أوجلايتو محمد خدابنده من وزن ٤ر٢٥٤ غم وقطر ٢١ مم أصدر سنة ٧٠٧هـ (١٣٠٧م) وآخر من عهد أبي سعيد بهادر خان من وزن ٤ر٢٧٧ غم وقطر ٢١ر٢ مم أصدر سنة ٧٢٠هـ (١٣٢٠م) . ومن الدراهم الفضية هناك نموذج من عهد هولالكو من وزن ٢ر١٨٥ غم وقطر ٢٢ مم سنة أصدره مجهولة وآخر من عهد أرغون من وزن ٢ر٥٢٥ غم وقطر ٢٢ مم أصدر سنة ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) وآخر من وزن ٢ر٢١٠ غم وقطر ٢٣ مم من عهد غازان وسنة ضربه مجهولة وآخر من وزن ٣ر٨٠٥ غم وقطر ٢٦ مم أصدر سنة ٧١٦هـ (١٣١٦م) وهو من عهد اوجلايو ودراهم السلطان أبي سعيد المتوفى لدينا كثيرة بعضها شديد التباين عن غيره من حيث الوزن والحجم منها من وزن ٣ر٥٦٦ غم وقطر ٢٣ مم وسنة ٧٢٧هـ (١٣٢٦م) وآخر من وزن ٢ر٥٠٠ غم وقطر ٢٠ مم وسنة ٧٣٥هـ (١٣٣٤م) .

كانت مراكز اصدار هذه النقود أكثر تبايناً مما كانت عليه في العهد العباسي الاخير فقد ضربت في العراق في بغداد والحلة وواسط والبصرة وفي الجزيرة في الموصل وسنجار وأربل وفي خارج هاتين الولاياتين في

(١٦) انظر مجموعة مسكوكات المتحف العراقي ، أنظر أيضا مسالك الابصار كما ورد في صبح الاعش ، ج ٤ ، ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

مدن متباعدة مثل سلطانية وتبريز وسأوة وشيروان وجرجان وغيرها ، وقد كان الدينار الايلخاني متوسط الحجم أو صغيره أصغر بصورة عامة من الدينار العباسي في عهوده الاخيرة وكانت نقود هولاء كو أكبر حجما - بصورة عامة - وأكثر انتظاما في دوائرها وأبسط في الكتابات المنقوشة عليها من نقود السلاطين الذين أعقبوه وأقرب من غيرها شيها بالنقود العباسية وقد كانت النقود الايلخانية تتميز بصورة عامة بكثرة النقوش التي نجد من بينها صور حيوانات كالارنب والقرود أو صور وجه انسان ، أما النصوص المنقوشة عليها فأتنا نجد المضروب منها في البلاد الاسلامية يتمثل في العبارات التقليدية مثل (لا اله الا الله محمد رسول الله) وما شاكلها ، كما نجد أسماء الخلفاء الراشدين الاربعة منقوشة على الكثير منها باستثناء أكثر نقود السلطان اولجايتو محمد خدابنده حيث نجد عليها أسماء أئمة الشيعة الاثنى عشرية •

الصناعة

عرفت صناعة الفخار الملون الجميل في العراق في عصور ما قبل التاريخ كما وجدت فيه آثار أقدم القرى والمباني وهناك نماذج من خوذ وأسلحة ذهبية مطعمة بالاحجار الكريمة وحلى دقيقة الصنعة وتماثيل سومرية وأكديّة وآشورية كثيرة يضمها المتحف العراقي الحالى وآثار بابل لا تزال تثبت الآن وجود فنون البناء والنحت والنقش في العراق القديم وقد استمرت هذه الصناعات والفنون في العصور التالية وان كانت تتذبذب في جودتها وانتشارها تبعا لتذبذب الاحوال السياسية والاقتصادية التي مر بها تاريخ البلاد وقد ورث المسلمون بعد فتحهم العراق أكثر هذه الصناعات والفنون وطوروها تبعا لحاجاتهم وطبيعة مدينتهم • وقد أصبح العراق الحالى قاعدة مهمة من قواعد المدنية الاسلامية أيام الخلفاء الراشدين والامويين ثم غدا القاعدة الرئيسة لها خلال أكثر أيام العباسيين وقد كان الكثير من أصحاب الصناعة والعلم والفن يتقدمون اليه لعرض ما لديهم من مهارة وفن وكان يساعد ذلك تشجيع الخلفاء والسلاطين وحاشيتهم ونشاط التجارة العالمية التي كان العراق أحد طرقها الرئيسة ومركزا لتزويدها بسلع مهمة كالمنسوجات الفاخرة والزجاج والورق وغيره وتوفر المهارة الفنية ورؤوس الاموال وقد أشار ابن الفقيه الى العراق وقد كتب في نهاية القرن الثالث الهجرى بأنه : (قلب الارض وخزانة الملك الاعظم)^(١) والى بغداد : (ثم قل في عجائب بغداد ما شئت التي قد اجتمع فيها ما هو متفرق في جميع الاقليم من أنواع التجارات والصناعات)^(٢) واذا استعرضنا أهم ما جاء به الجغرافيون والسواح عن صناعة العراق في العهد العباسى نجد ابن الفقيه يؤكد على تميز أهل الكوفة بصناعة الوشى والخز والعطريات وأهل بغداد

(١) أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٥٢ .

(٢) ن . م .

بصناعات كثيرة أهمها الثياب البيض والزجاج المحكم من أقذاح وأقحاف وكاسات وبالغضائر الحجرية كما يفهم من كلام أورده بعد ذلك أن بغداد كانت مركزاً لصناعة الورق الفاخر وأن أهل كورة دجلة والسواد وميسان ودست ميسان كانوا يتميزون بعمل الستور والبسط والفرش ونسيج الحرير^(٣) . ويشير الاصطخرى وقد وضع كتابه حوالى ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) الى صناعة قصر الثياب فى بغداد حتى ان أنواعا خاصة من الثياب التى كانت تصنع فى خوزستان كانت تحمل اليها من أجل ذلك^(٤) : وقد قدم الينا المقدسى وقد وضع كتابه حوالى ٣٧٥ هـ (٩٨٣ م) وصفا جيدا لانواع الصناعات فى العراق مع توزيعها الجغرافى فأشار الى أن البصرة كانت ذات أقطان وأن عبادان كان فيها عباد صالحون أكثرهم من صناع الحصر من الحلفاء^(٥) وتكرت معدن السمسّم وصناع الصوف^(٦) وأن البصرة مشهورة بالخزّ والبزّ وأنها كانت معدن اللالىء والجواهر وبها يضع الراسخت والزنجفر والزنجار والمرداسخ^(٧) وأن بالكوفة عمائم الخزّ وببغداد الطرائف وألوان ثياب القزّ وأن بالنعمانية كانت تصنع أكسية وثياب صوف عسليّة حسنة وبها أزرّ وعمائم يكانكى رفيعة^(٨) . وأشار الى شهرة الستور الواسطية والى ان من رسوم أهل العراق التّجمل والتّطليس وأنهم يكثرون التّقل وتسطيل العمائم^(٩) . وقد مر الرحالة المغربى ابن جبير بالعراق فى ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) ووصف بغداد وأهم محلاتها وأشار الى أن أحداها تسمى (العتايّة) بها

(٣) ن . م . ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٤) أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى المعروف بالكرخى ، مسالك الممالك ، ص ٩٣ .

(٥) شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبى بكر الشامى المقدسى المعروف بالبشارى ، احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ص ١١٨ .

(٦) ن . م . ص ١٢٣ .

(٧) ن . م . ص ١٢٨ .

(٨) ن . م . ص ١٢٨ .

(٩) ن . م . ص ١٣٩ .

تضع الثياب العتابية وهي من حرير مختلف الالوان^(١٠) . وأشار ياقوت الحموى الى ان (حربى) وهي بلدة فى أقصى دجيل تنسج فيها الثياب القطنية الغليظة وتحمل الى ساير البلاد^(١١) وان (الحظيرة) وهي قرية كبيرة فى جهة تكريت من ناحية دجيل ، تنسج فيها الثياب الكرباس الصفيق ويحملها التجار الى البلاد^(١٢) . وأن (باقدارى) وهي قرية من قرى بغداد ، تعمل بها ثياب من القطن غلاظ صفاق يضرب بها أهل بغداد المثل^(١٣) . وأن (نرس) وهو نهر بنواحى الكوفة مأخذه من الفرات وعليه عدة قرى ، تنسب اليها ثياب تسمى بالترسيّة^(١٤) وأن (سبن) اسم موضع فى العراق كانت تنسب اليه الثياب السبئية وتتخذ من الكتان وهي أغلظ ما تكون^(١٥) . وأن قادسية دجلة وهي قرية كبيرة من نواحى دجيل بين حربى وسامرا ، كان يعمل بها الزجاج^(١٦) . وفى ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) أى قبل سقوط بغداد بسنتين مر السائح المغربى ابن سعيد بالعراق ، وأشار الى تعدد صناعات الموصل التى كان من أهمها أواني النحاس المطعم التى تحمل الى الملوك والثياب المحررات^(١٧) وهي التى يخلط غزلها بالحرير . ولدنا فى الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة ما يدل على وجود الصابون^(١٨) فى هذه الفترة ، وهو من المستلزمات المهمة للمدينة ولا بد ان تكون له صناعة فى العراق ، والتحف الذهبية والفضية من قناديل وحلى نسائية والاقمشة الفاخرة من الحرير والصوف والقطن^(١٩) وفى المبنى الموجود فى بغداد الحالية والموسوم

-
- (١٠) رحلة ابن جبير ، ص ٢١١ .
 (١١) معجم البلدان (طبعة لايبزج) ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ .
 (١٢) ن . م . ص ٢٩٢ .
 (١٣) ن . م . ج ١ ، ص ٣٧٥ .
 (١٤) ن . م . ج ٤ ، ص ٧٧٣ .
 (١٥) ن . م . ج ٣ ، ص ٣٥ .
 (١٦) ن . م . (مطبعة السعادة) ج ٧ ، ص ٧ .
 (١٧) ابن سعيد المغربى ، كتاب بسط الارض فى الطول والعرض ، ص ٩٠ .
 (١٨) الحوادث الجامعة ، ص ٢١٥ .
 (١٩) ن . م . ص ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ١١٨ ، ١٥٤ ، ١٩٤ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢٦٨ .

بالقصر العباسي وفي جامع مرجان والمدرسة المستنصرية نماذج عباسية لمصنوعات زجاجية وخزفية جميلة وقاشاني وأبواب وشبابيك من الخشب المزخرف بالزخارف الاسلامية التقليدية وأخيرا لا بد لنا من الاشارة الى صناعة ضرب النقود الذهبية والفضية والنحاسية ولدينا الكثير منها مما يعود لايام الخلفاء العباسيين الاربعة المتأخرين •

وخلال العهد الايلخاني ، يبدو ان أكثر هذه الصناعات ، ان لم يكن جميعها استمر في العراق • فهولاكو ، الفاتح الجديد أمر باصلاح ما خرب من بغداد واعادة أسواقها وأعمال أهلها الى ما كانت عليه سابقا ومع أنه ليس لدينا من الحقائق التاريخية ما يحدد مقدار خسارة المدينة من الايدى الماهرة في الصناعة فأن البلاد ، كما يبدو - استطاعت التعويض عنها بعد فترة ليست طويلة ، ربما عن طريق هجرة أهل الخبرة من أهل القرى والمدن المجاورة الى المدن المتضررة وهي بغداد والموصل وأربل وواسط^(٢٠) • أما المدن الاخرى كالبصرة والكوفة والحلة فأنها استسلمت للفاتحين دون قتال ولذلك لم تخسر الكثير من أياديهما الماهرة • ويلقى زكريا بن محمد بن محمود القزويني وقد وضع كتابه حوالي ٦٧٤هـ (١٢٧٥م) ضوء على طبيعة النشاط الصناعي والفني في بغداد بقوله أنها : (مجمع لطيبات الدنيا ومحاسنها ومعدن لارباب الغايات وآحاد الدهر في كل علم وصنعة)^(٢١) وأشار السائح المغربي ابن بطوطة الى ما يقرب من ذلك بقوله وقد مر بالعراق في ٧٢٧هـ (١٣٢٧م) : (والجانب الشرقي من المدينة حافل الاسواق عظيم الترتيب أعظم أسواقه يعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيه على حدة)^(٢٢) وقد ورد في مرصد الاطلاع ، وهو معاصر ، ما يشير الى استمرار الكثير

(٢٠) انظر ما قاله صاحب مرصد الاطلاع عن بغداد بعد فتح هولولاكو لها : (حتى جاء التتر اليها فخرّب أكثرها وقتلوا أهلها كلهم ، فلم يبق غير احاد كانوا نموذجاً حسناً وجاء أهل البلاد فسكنوها وباد أهلها) ج ١ ، ص ٢٠٩ .

(٢١) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٠٩ - ٢١١ .

(٢٢) تحفة النظار ؛ ج ١ ص ١٤٠ - ١٤٢ .

من الصناعات العباسية ، فقد أشار الى (حزة) وهي بلدة قرب أربل ، بأنه ينسب اليها النصافى الحزبية وهي أردية^(٢٣) . والى (الحظيرة) وهي قرية على دجيل ، أنه ينسب اليها الثياب القطن التي تحمل الى البلاد^(٢٤) والى (ترسخ) وهي قرية بين (باكسيا) و (البنديجين) أن فيها ملاحاة واسعة بجلب ملحها الى بغداد^(٢٥) . والى (حربى) أنه تنسج فيها الثياب القطنية الغليظة التي تحمل الى البلاد^(٢٦) . والى (دار القز) وهي محلة فى الجانب الغربى من بغداد منفردة فى الصحراء ، بأن الكاغد كان يصنع بها ويضيف القزوينى الى ذلك ان (كرخ) وهي قرية فوق بغداد ، بها دكاكين الكاغد والثياب الابريسية^(٢٧) .

ويبدو مما كتبه السائح المغربى ابن بطوطة أن صناعة الزجاج العراقى كانت تتمتع بشهرة غير قليلة حتى أنه وجد الكثير من منتجاتها فى مدينة (العلايا) فى بلاد الروم (آسيا الصغرى) أثناء مروره بها^(٢٨) وفى مدينة خوارزم^(٢٩) أيضا كما يفهم من كلامه عن (دهلى) ان الاسلحة كانت تصنع فى العراق ويتاجر بها فى الهند^(٣٠) وهو يشير فى موضع آخر الى ان بغداد كانت تصنع أنواعا خاصة من الثياب الحريرية تسمى (الكمخا) تصدر الى خارج العراق^(٣١) . وخلال مروره بمدينة النجف فى العراق دخل مزار الامام علي فوصف العتبة بأنها كانت مصنوعة من الفضة والقبه بأنها مفروشة بأنواع البسط الحريرية وغيرها وبها قناديل الذهب والفضة

(٢٣) مراصد الاطلاع ، ج ١ ، ص ٤٠٠ .

(٢٤) ن . م . ص ٤١١ .

(٢٥) ن . م . ج ١ ، ص ٢٥٨ .

(٢٦) ن . م . ج ١ ، ص ٣٩٠ .

(٢٧) ن . م . ج ٢ ، ص ٥٠٧ ؛ زكريا بن محمد القزوينى ، آثار

البلاد ، ص ٤٤٤ .

(٢٨) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٨٢ .

(٢٩) ن . م . ص ٢٣٤ .

(٣٠) ن . م . ص ٨٢ .

(٣١) ن . م . ص ١٩٣ .

الكبار والصغار وفي وسطها مسطبة مربعة مكسوة بالخشب المغطى بصفائح الذهب المنقوشة وسقف القبة مغطى بستور من الحرير^(٣٢) • ومع أن الكثير مما ذكره يعود في صناعته الى العهد العباسي فمن المحتمل جدا ان يكون بعضه خصوصا الستور والبسط من نتاج العهد الايلخاني لان السائح مر بالعراق في واخر العهد المذكور • وقد أشار ابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) الى ان مملكة ايران (أى الدولة الايلخانية) وكان العراق العربى والجزيرة جزء منها ، معروفة بصناعة الاقمشة الفاخرة كالنخ والمخمل والكمخا والعتابى والنصافى^(٣٣) • والنخ كما وصفه ابن بطوطة ، ثياب من الحرير والكمخا ثياب حريرية مذهبة^(٣٤) • والنصافى البغدادية على ما يفهم من مسالك الابصار ثياب رفيع من القطن والكتان ومن الكتان وحده كانت مشهورة خارج العراق^(٣٥) • يضاف الى ذلك ان الورق البغدادى كان أجود أصناف الورق المستعمل فى مصر فهو ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزاء ولا يكتب فيه فى الغالب الا المصاحف الشريفة ويستعمل كذلك فى مكاتب القانات وكان الورق الشامى دونه ودون ذلك الورق المصرى^(٣٦) • وقد مر السائح البندقى (ماركو بولو) بالعراق فى أوائل العهد الجلائرى ، وهو العهد الذى أعقب العهد الايلخانى ، فأشار الى وجود بضعة صناعات مهمة فى بغداد منها منسوجات الحرير المصنوعة بالذهب والقديفة المطرزة بصور الطيور والحيوانات والنسيج الفاخر المسمى بالدمشقى وأضاف الى ذلك ان جميع اللؤلؤ الذى يحمل من الهند الى اوربا يثقب ويهىء للاستعمال فى بغداد وأن الاقمشة الحريرية والمذهبة المسماة

-
- (٣٢) ن • م • ص ١٠٩ - ١١٠ •
(٣٣) مسالك الابصار ، كما جاء فى صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٤٠٨ •
(٣٤) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٩٣ •
(٣٥) صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١٠٢ •
(٣٦) ن • م • ج ٢ ، ص ٤٧٦ ؛ ج ٦ ، ص ١٨٩ - ١٩٥ ؛ انظر أيضا لنجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٣٦ •

موسلين تصنع في مدينة الموصل^(٣٧) . يضاف الى ذلك أن لدينا من الأخبار ما يشير الى نوع من صناعة الساعات في أواخر العهد العباسي وفي هذا العهد أيضاً^(٣٨) ومثل ذلك صناعة الخمر لاسيما وأن الكثر من أهل الذمة والمسلمين كانوا يشربونها خلال العهدين العباسي والاييلخاني .

ان دراسة صناعات العراق دراسة علمية شاملة تستلزم توفر نماذج أثرية كافية ولكن المؤسف ان بقايا العهد الايلخاني محدودة وما يتوفر لدينا منها من مباني وخزف وزجاج ونقوش وقاشاني ومصنوعات خشبية ومخطوطات تشير الى استمرار الفن العباسي من جهة وضالة التأثيرات المغولية من الجهة الاخرى باستثناء صناعة ضرب النقود التي نشهد فيها تغيرا واضحا يمثل بكثرة صور الحيوان والانسان المنقوشة عليها في العملة النحاسية بصورة خاصة فلدينا فلس ضرب في الموصل يحمل في احدى جانبيه صورة أسد منقوشة وفي أعلاه شمس وآخر ضرب في بغداد يحمل نقشا مدورا لوجه انسان وحواليه نقوش تتألف من ثمانية مثلثات وآخر ضرب في سنجار وعلى احدى جانبيه صورة أرنب رافع احدى رجليه الى الاعلى وهو داخل مثلث متساوي الاضلاع ومثل ذلك الكثير ولكننا نكتفي بهذه النماذج لكثرتها وتكررها ومما يلفت لنظر ان هذه الصور والنقوش تمثل شيئا غير قليل من الجمال ودقة الصنعة وقد ضربت في جهات متعددة كبغداد والموصل وأربل وسنجار والحلة والبصرة^(٣٩) .

(٣٧)

Manuel Komroff, The Travels of Marco Polo (The Modern Library, New York), p. 28 - 30.

ومما يؤيد ما ذكره ماركو بولو عن صناعة ثقب اللؤلؤ في بغداد ما ذكره ابن حجر العسقلاني بأن احد سكان بغداد المعروف بالسوامي تعلم ثقب اللؤلؤ فيها فجمع من ذلك مالا دخل به بتجارة الى الصين ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٥٩ .

(٣٨) الحوادث الجامعة ، ص ٤٤٤ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ،

ج ١٤ ، ص ٩٧ .

(٣٩) مجموعة مسكوكات المتحف العراقي .

التجارة

يمكن القول على ضوء الحقائق التاريخية المتوفرة لدينا أن نشاط العراق التجارى خلال العهد الايلخانى استمرار لما كان عليه فى أواخر العهد العباسى مع بعض الفروق التى يمكن اجمالها فيما يأتى :

أولاً : ان الفتح المغولى خلق توجيهها جديدا فى تجارة الشرق الاوسط أصبحت معه علاقات العراق مع ايران وهى القاعدة الاساسية للامبراطورية الايلخانية ، أشد مما كانت عليه فى السابق بينما ازدادت علاقاته مع تركستان والصين ، لان الامبراطورية الايلخانية كانت ولو اسميا جزء من امبراطورية الخاقان المغولى الذى اتخذ قواعده فى تركستان ثم الصين •

ثانياً : وتبعاً لذلك ضعفت علاقات العراق التجارية مع سوريا ومصر وبلاد العرب لانها أصبحت تابعة لدولة المماليك العدو الاول للایلخانيين •

ثالثاً : أصبح الطريق البرى الذى يربط العراق بأواسط آسيا يميل الى الشمال نتيجة لاختيار الايلخانيين لتبريز ثم سلطانية عاصمتين لهم وكلاهما فى أذربيجان كما أنه أصبح أكبر أهمية من السابق بالنسبة للعراق لانه أصبح يربطه بقلب الامبراطورية المغولية التى كان العراق جزء منها •

رابعاً : لم يعد هناك خليفة ولا بلاط خلفاء فى بغداد يوجه اقتصاد البلاد وتجاريتها بحاجاته الكبيرة المستمرة من الاقمشة الفاخرة وأسباب الترف والاسلحة وغيرها ولكن بغداد ظلت احدى أكبر وأهم المدن الايلخانية خصوصا فى عهد واليها عطا ملك جوينى الذى حرص على إعادة مكاتنها القديمة اقتصادياً وثقافياً •

كان حكام المغول يدركون ما للتجارة من أهمية بالغة فى رخاء البلاد ونشاطها الاقتصادى وأكثر المؤرخين المعاصرين يعتبرون السبب فى اقدام جنكيزخان على غزو دولة خوارزم فى ٦١٦هـ (١٢١٩م) هو قتل (غايرخان) حاكم مدينة (أترار) فى ما وراء النهر للتجار الذين أرسلهم جنكيزخان للحصول على طرائف وتحف تلك البلاد بعد استأذانه (محمد بن تكش)

سلطان خوارزم^(١) • وأن جنكيزخان أرسل للشاه بعد تلك الحادثة من يخبره بأن « من المهود من الملوك أن التجار لا يقتلون لانهم عمارة الاقاليم وهم الذين يحملون الى الملوك ما فيه التحف والاشياء النفيسة »^(٢) • وقد كان حكام المغول يهتمون - على العموم - بأمر الطرق التجارية وضرورة المحافظة على سلامتها ، حتى أن اخضاع جنكيزخان لاواسط آسيا خلق جوا من السلام والامن على طول الطرق التجارية التي كانت تصلها بالعالم الاسلامي فقد أقام على الطرق حراسا (قراقجية) يخفرون المترددين اليها^(٣) • وأصدر أمره بأن جميع التجار الذين يدخلون المناطق الخاضعة لحكمه يجب المحافظة على سلامتهم وكل بضاعة يمكن أن تنال أعجابه يجب ان ترسل اليه مع أصحابها^(٤) • وقد عمل السلطان محمود غازان في أواخر القرن السابع الهجري على تحديد مسؤولية ما يقع من قطع للطرق أو تهديد لها والقاءها على سكان المنطقة التي تقع فيها الحوادث وتعيين آلاف من الحراس لمراقبة الطرق والمحافظة عليها^(٥) • ويشير الى مثل ذلك السائح البندقي (ماركو بولو) في كلامه عن سفره خلال أقليم فارس في الفترة التالية للحكم الايلخاني حيث قال أن السكان كانوا معتادين على قتل بعضهم البعض ولا يترددون عن الحاق الاذى بالتجار والمسافرين لولا خوفهم من التتار الشرقيين الذين ينزلون بهم بسبب ذلك أشد العقاب ويضيف الى ذلك قوله بأن الاوامر كانت تقتضى بأن على السكان في جميع الطرق التي يمكن أن ينشأ فيها خطر يهددها ، أن يقدموا أدلاء نشطين موثوق بهم الى التجار الذين يطلبون منهم ذلك لقيادتهم والمحافظة على سلامتهم مقابل أجور تناسب مع عدد الاحمال وطول المسافة^(٦) •

-
- (١) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٠ - ٤٠١ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٨٢ - ٨٣ .
 (٢) تاريخ مختصر الدول ، ص ١١٩ .
 (٣) ن . م . ص ٣٩٩ .
 (٤) History of the World Conqueror, I. p. 77-78.
 (٥) داستان غازان ، ص ٢٧٧ - ٢٨١ .
 (٦) The Travels of Marco Polo, p. 40.

تقسم التجارة الى نوعين داخلية وخارجية فالداخلية هى ما يجرى بصورة طبيعية بين الريف والمدينة وبين المدن نفسها والمناطق الريفية مع بعضها والتجارة الخارجية هى ما كان يقوم بين العراق والبلاد المجاورة والبعيدة • ان المدن مراكز طبيعية للمواصلات والتجارة ونشاطها يعكس لنا أحوال البلاد الاقتصادية العامة ومدى رخاءها وحيويتها وقد كانت تجارة العراق - فى العهد الايلخانى - تتركز فى بغداد بشكل رئيسى ثم فى الموصل والبصرة وواسط والنجف • وكنت تجارته الداخلية تعتمد على الطرق النهرية أكثر منها على الطرق البرية لرخصتها وسهولتها ويتكرر ذكر دجلة أكثر من الفرات فى هذا المجال وكانت تربط بين البصرة وبغداد والموصل وكان القسم الجنوبى منها أكبر أهمية من غيره لاتصاله بخليج البصرة والهند والصين • وكانت السفن والفوارب تصل من الفرات الى دجلة عن طريق القنوات العديدة التى تربط بينهما : اما التجارة الداخلية فأنها كانت تقوم على الطرق البرية والبحرية وقد ازدادت أهمية الطرق البرية فى هذه الفترة وهى نفس الطرق العباسية المعروفة مع تعديلات ثانوية وكان أهمها طريق خراسان العظيم الذى كان يمر من بغداد الى حلوان داخل العراق ومنها الى همدان فالرى ومنها الى أقليم خراسان ثم الى نيسابور وطوس ومرو حتى يبلغ ضفة نهر جيحون عند آمل ثم الى بخارى فسمرقند • وينشطر الطريق فى (زامين) الى شطرين يسير الايسر منهما الى الشاش وهى (طاشقند الحالية) ثم الى (أترار) ويسير الشطر الايمن من (زامين) الى أقليم فرغانة • وينتهى أخيرا الى تخوم الصين • وخلال العهد الايلخانى فتح طريق فرعى يتجه من الشمال الى السلطانية التى أصبحت قاعدة الدولة فى عهد السلطان اولجايتو محمد خدابنده وأصبحت مركزا للطرق بدلا من مدينة الرى^(٧) •• أما الطرق لآخرى ، فهناك الطريق المار بواسط الى البصرة ، وطريق الحج وكان يخرج من بغداد الغربية جنوبا الى الكوفة

(٧) لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية (ترجمة بشير فرنسيس

وكوركيس عواد) ص ٢٣ - ٢٤ •

ومنها الى الحجاز ، وكان يخرج بالاضافة الى ذلك طريق ثانى للحج يسير
 فى بادىء أمره بموازة الطريق الاول ويلتقى به أخيرا على مرحلتين من
 شمال مكة • وفيما عدا ذلك كان هناك طريق شمالى يصل بين بغداد والانبار
 على الفرات ثم يصعد مع النهر الى الرقة حيث تخرج منه طرق الى الروم
 شمالا ودمشق غربا ، وطريق آخر من بغداد الى جانبى دجلة الى الموصل
 والجزيرة • وقد ازدادت أهمية طريق خراسان بسبب الاحوال السياسية
 الجديدة بينما خسرت الطرق المتصلة بالشام الكثير من أهميتها لكثرة
 المخاطر المحيطة بها بسبب العداء بين اليلخانيين والمماليك •

أما الطرق البحرية فقد كانت تصل البصرة ببغداد عن طريق نهر
 دجلة وكانت السفن الآتية من بحر الهند تصعد من عبادان الى الابله ومنها
 فى نهر الابله الى البصرة^(٨) • وكانت عبادان تقع على جزيرة تسمى (ميان
 روزان) ومعناها (وسط الانهار) تحيط بها دجلة العوراء أى شط العرب
 من جانبها حيث تصب فى البحر فى جهتين ويقع تفرق مياه دجلة المذكورة
 الى فرقتين عند قرية تقع على هذه الجزيرة تسمى (المجرى) حيث تذهب
 فرقة الى اليمين تسير فيها السفن الى بر العرب ناحية البحرين وغيرها وفرقة
 الى جهة اليسار تسير فيها المراكب الى نواحي فارس فتمر بجزيرة (كيس)
 أو (كيش) المعروفة بمغاصات اللؤلؤ ومنها الى (سيراف) وكانت أعظم
 موانئ فارس تزدهم بالمراكب وتعيش على التجارة ومنها كانت تصل الى
 (هرمز) حيث يرد التجار من مختلف أنحاء الهند يحملون معهم التوابل
 والاحجار الثمينة ونسيج الذهب وأسنان الفيل وغيرها من سلع تجارية مهمة
 فى ذلك الحين ، ليأخذها منهم تجار يردون من مختلف الاصقاع يبيعونها فى
 بلادهم^(٩) •

(٨) المؤيد صاحب حماة ، تقويم البلدان ، ص ٥٧ •

(٩) مراصد الاطلاع ، ج ١ ، ص ٢١٦ ؛ ج ٢ ، ص ٩١٣ ، ج ٣ ،

ص ١٣٤١ ؛ القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٤٥ - ٤٠٨ ابن
 بطوطة ، ج ١ ، ص ١٧٣ ؛ رحلة ماركو بولو (بالانكليزية) ص ٢٩ - ٣٢ ،

ولابد لنا اذا أردنا ان نفهم الكثير عن طبيعة حركة هذا العهد التجارية ان نستعرض ما ورد عن مدن العراق الرئيسة لانها كانت قلب تجارته النابض ومراكزه الاقتصادية الحيوية فبغداد كانت لا تزال تحتفظ بالمركز الاول لموقعها الجغرافى الممتاز ومكائنها التاريخية والسياسية وقد زارها الرحالة ابن سعيد فى ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) فذكر أن أرخص ما فيها التمر الذى يجلب من البصرة والرز وقصب السكر اللذان يجلبان من البطائح وجهات واسط وان فيها التفاح القراطيس والغنم الرازقى والنانج القروى والليمون البعقوبى والورق البغدادى والاقلام الواسطية وتحمل المراكب اليها بضائع الهند فى دجلة^(١٠) . وأشار اليها زكرياء بن محمد القزوينى بأنه كان يحمل اليها كل متاع ثمين وعرض نفيس^(١١) . وابن بطوطة يشير الى نشاط المدينة وامتلاء الجانب الشرقى منها بالاسواق التى كان أعظمها سوق الثلاثاء وفيه كل صناعة على حدة^(١٢) . والمستوفى القزوينى يشيد بغنى المدينة ورخاءها وتوفر المواد الغذائية ورخصها فيها حتى أن كل ما يحتاجه الانسان من ضرورات الحياة المرفهة يجده تحت متناول يده^(١٣) . وأخيرا يصف ماركو بولو المدينة بأنه يجرى خلالها نهر عظيم يقوم التجار بنقل بضائعهم بواسطته من البحر واليه^(١٤) . أما البصرة فأننا لا نجد عنها الا القليل فابن بطوطة لا يقدم لنا ما يعيننا على ادراك مقدار نشاطها التجارى وان كان يشيد بسعتها وكثرة بساطتها وفواكهها ويشير الى أن الابل ، وهى ميناء البصرة ، كانت مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس ولكنها خربت فأصبحت فى عهده قرية بها آثار قصور وغيرها تدل على عظمتها السابقة^(١٥) . ويصف

-
- (١٠) كتاب بسط الارض ، ص ٩١ .
 (١١) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٠٩ .
 (١٢) تحفة النظر ، ج ١ ، ص ١٤٠ - ١٤٢ .
 (١٣) نزهة القلوب (الترجمة الانكليزية للقسم الجغرافى) ، ص ٤١ - ٤٢ .
 (١٤) رحلة ماركو بولو (بالانكليزية) ، ص ٢٩ .
 (١٥) تحفة النظر ، ج ١ ، ص ١١٥ - ١١٨ .

حمد الله القزويني البصرة بأنها مدينة متوسطة الحجم^(١٦) ويفعل مثل ذلك ماركو بولو^(١٧) . واذا انتقلنا الى الموصل نجد ابن سعيد يصفها بأنها قاعدة بلاد الجزيرة^(١٨) . وزكريا القزويني بأنها احدى قواعد بلاد الاسلام رفيعة البناء وسيدة الرقعة فيها بساتين نزهة وجواسق واهلها أهل تدقيق في الصناعة^(١٩) . وهذا لا يعنيا كثيراً على ادراك طبيعة نشاطها التجارة ولكن حمد الله المستوفي القزويني يقدم لنا صورة أوضح عن ذلك من طرف خفي بقوله ان الموصل عاصمة بلاد الجزيرة ، وأن واردات الحكومة من هذه الولاية كانت تبلغ أيام الاتابكة وبدر الدين لؤلؤ عشرة ملايين ديناراً فأصبحت الآن - أى فى أوائل العهد الجلائرى - تساوى (١٩٢٥٠٠٠) ديناراً^(٢٠) ويعنى ذلك تدهوراً كبيراً أصاب وارداتها يحتمل جداً ان يكون تناقص النشاط التجارى أحد أسبابه . وقد مر السائح المغربى ابن بطوطة بهذه المدينة وأشار الى كثرة فنادقها وأسواقها وقال أن قيساريها مليحة لها أبواب من حديد تدور بها دكاكين وبيوت متقنة البناء بعضها فوق بعض^(٢١) . ولكن السائح البندقي ماركو بولو يبرز أهميتها التجارية بصورة أكثر وضوحاً من غيره بتأكيد على أسسجتها الذهبية والحريرية وقوله أن جميع كبار التجار المعروفين بالموصلين والذين يحملون التوابل والعقاقير بكميات كبيرة بين بلاد وأخرى هم من منطقتها^(٢٢) . ولا بد لنا بعد هذا من ذكر مدينة واسط لانها كانت مركزاً تجارياً مهماً بين خليج البصرة وبغداد وزكريا القزويني يشير من طرف الى رخاء ونشاط تجارى غير قليل فيها بقوله أنها كانت (كلها قصور وبساتين ومياه وعيها ان حاصلها يحمل الى غيرها فلو

-
- (١٦) نزهة القلوب ، ص ١٠٣ .
 - (١٧) رحلة ماركو بولو ، ص ٢٩ .
 - (١٨) كتاب بسط الارض ، ص ٩٠ .
 - (١٩) آثار البلاد ، ص ٣٠٩ .
 - (٢٠) نزهة القلوب ، ص ١٠٢ .
 - (٢١) تحفة النظر ، ج ١ ، ص ١٤٨ - ١٤٩ .
 - (٢٢) رحلة ماركو بولو ، ص ٢٩ .

كان حاصلها يبقى فى يد أهلها لفاقت جميع البلاد^(٢٣)) ويشير ابن بطوطة أيضا الى أنها كانت مركز تجاريا وأنها مدينة على شىء من الغنى^(٢٤) . وإذا انتقلنا الى طرف آخر من أطراف العراق وهو طريق الحج الجنوبى الغربى الى مكة ، نجد الكوفة ، وهى محطة رئيسة فيه ، يصفها المستوفى القزوينى بأن أكثرها خراب^(٢٥) ، ويفعل مثل ذلك ابن بطوطة^(٢٦) وسبب ذلك على قوله ، قبيلة خفاجة التى تسكن فى منطقتها وضعف حركة الحج فى هذا العهد ، وانتقال المركز التجارى من هذه المدينة - كما يبدو - الى (النجف) التى كانت تجارتها نشطة فى هذا العهد وكما يصفها ابن بطوطة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناسا بها أسواق حسنة وأهلها تجار يسافرون فى الاقطار^(٢٧) . هذه أهم الحقائق التى وصلتنا عن مدن العراق التجارية الرئيسية وهى تشير الى أن تجارة العراق لم تكن كبيرة فى العهد الایلخانى وأن بغداد كانت مركزها الرئيس الذى تبدو المدن الاخرى الى جانبه ثانوية فى أهميتها باستثناء مدينة الموصل فى الجزيرة .

أدى الفتح المغولى للمناطق الشرقية من العالم الاسلامى - كما يقول عطا ملك جوينى وهو معاصر شديد الصلة بالمغول ، الى ذهاب الكثير ممن يعتقدون باله واحد الى داخل الامبراطورية المغولية حتى وصلوا أقصى أقطار الشرق واسوطنوا فيها وبلغوا هناك أعدادا لا تحصى وكان منهم من حمل الى هناك خلال فتح المغول لما وراء النهر وخراسان لكونهم من أصحاب الفنون والحرف ومن رعاة الحيوانات وآخرون جاؤا من أقصى الجهات الغربية من العراقين وسورية والاقطار الاسلامية الاخرى ، وظلوا يتجولون على الطرق التجارية يزورون كل منطقة ومدينة حيث كسبوا الشهرة واستقروا نهائيا فى تلك المناطق وأنشأوا لانفسهم القصور والقلاع والمدارس ونشروا

(٢٣) آثار البلاد ، وأخبار العباد ، ص ٣٢٠ .

(٢٤) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١١٤ .

(٢٥) نزهة القلوب ، ص ٣٧ .

(٢٦) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٣٧ .

(٢٧) ن . م . ص ١٠٩ - ١١٠ .

الاسلام^(٢٨) • وقد أيد ابن بطوطة ذلك من بعيد بقوله أن (في كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم ولهم فيها المساجد • • وهم معظمون محترمون)^(٢٩) وهو يؤكد على ما كان في الصين في عهده من الامان والاطمئنان بالنسبة للمسافرين حتى ان لاتسان كان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر ومعه الاموال الطائلة فلا يخاف عليها لان حكومتها وضعت في كل منزل في بلادها فندقا عليه حاكم معه جماعة من الفرسان والرجال للإشراف على ذلك^(٣٠) • وابن بطوطة يلقي ضوءاً مفيداً على نشاط العراقيين الجار في كلامه عن مدينة (السرى) عاصمة امبراطورية القبيلة الذهبية بقوله ان فيها طوائف عديدة من الناس كل منها يسكن في محلة على حده والتجار الغرباء من أصل العراقيين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور^(٣١) • وخلال سفر السائح نفسه من مدينة (السرى) الى خوارزم ، صحبه شريف من أهل كربلاء من التجار عزم على السفر معه الى الهند ، وبعد وصولهما خوارزم ، وصل من أهل كربلاء من العراق ، جماعة أخرى كانت تزعم السفر الى الصين ، فسافر التاجر المذكور معهم ، وعند وصولهم مدينة (الملق) وهي آخر البلاد التابعة لمنطقة ما وراء النهر على حدود الصين ، وصل من بلدهم تجار آخرون نزلوا معه في فندق واحد^(٣٢) وخلال اقامة ابن بطوطة في مدينة خوارزم ، زار قاضيها أبا حفص عمر ، في داره ، فقدم له الطعام في أوانى كان بعضها من صناعات الزجاج العراقي^(٣٣) •

يضاف الى ذلك ان المصادر المعاصرة تطالعنا عن تنف من الاخبار عن عراقيين ذهبوا في تجارتهم الى الصين ، مثل ابراهيم بن محمد بن سعدى الشهير بابن

(٢٨)

History of the world conqueror, I, p. 77-78.

- (٢٩) تحفة النظار ، ج ٢ ، ص ١٦٠ •
- (٣٠) ن . م . ج ٢ ، ص ١٦٢ •
- (٣٠) ن . م . ج ١ ، ص ١٣٠ •
- (٣١) ن . م . ج ١ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ •
- (٣٢) ن . م . ج ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ •

السواملى الذى توغل وتمول فى تجارته مع الصين^(٣٣) . وأحمد بن يوسف بن أبى البدر البغدادى التاجر السفار الذى دخل الهند مرارا والصين وأقام فى تلك البلاد أكثر من عشرين سنة وتوفي فى حلب فى ٧٠١هـ (١٣٠١م)^(٣٤) ومحفوظ بن معنوق بابن البزورى الذى كان يغيب سنين كثيرة فى التجارة ويدخل الهند والصين حتى توفي فى دمشق سنة ٦٩٤هـ (١٢٦٥م)^(٣٥) وقد كان اهم ما يجلب من الصين المسك ، وكان يؤتى به من (خانفو) مدينة الصين العظمى حيث ترسو مراكب تجار المسلمين ويحمل منها الى بحر فارس ومنه الى الابله^(٣٦) . وكان الميناءان الصينيان الآخران اللذان يكثر ذكرهما على ألسنة التجار هما (الزيتون) و (سوسة) .

أما الهند فإن الاتصالات التجارية معها كانت أقدم وأكثر متانة من الصين ، والطريق اليها الذى تتكرر الاشارة اليه هو الطريق البحرى وكان الهنود يردون الى خليج البصرة وسواحل ايران من أجل التجارة مع أهل المنطقة وكانت الخيل العرب تحمل الى الهند من البحرين واليمن والعراق اضافة الى الاقمشة الفاخرة التى كانت ترد اليها من الصين والعراق ومصر^(٣٨) . وكان المسك يحمل من التبت الى الهند حيث يجمع فى يجمع ومنها يحمل فى البحر الى سيراف ميناء فارس المهم وعمان والمناطق المجاورة^(٣٩) وكانت سيراف مركزا رئيسا لالتقاء تجار العراق الواردين من الابله وتجار ايران والهند والديبل على خليج السند ميناء الهند الاكبر الذى يتجمع فيه تجار المسلمين ويشحن اليه التمر من البصرة^(٣٩) . وعندما

-
- (٣٣) ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٥٩ .
 (٣٤) ن . م . ج ١ ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .
 (٣٥) محمد بن رافع السلامى ، منتخب المختار ، ص ١٦٥ .
 (٣٦) صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ١١٥ .
 (٣٧) ن . م . ج ٤ ، ص ٤٨١ .
 (٣٨) ن . م . ج ٤ ، ص ٨١ ، ٨٤ .
 (٣٩) ن . م . ج ٥ ، ص ٦٤ .

وصل ابن بطوطة الى مدينة دهلى فى ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) لقي السيد أبا الحسن العبادى العراقى الذى كان يتجر بمال سلطان المدينة ويشتري له الاسلحة والامتعة من العراق وخراسان^(٤٠) . وعند مواجهته للسلطان المذكور وجد بين يديه تاجرا غنيا من شيوخ بغداد يعرف بالسامرى يحترمه السلطان ويقول له والدى^(٤١) . وكانت مدينة هرمز أيام ابن بطوطة مرسى الهند والسند تحمل منهما سلعهما الى العراقين وفارس وخراسان^(٤٢) ، وكان التجار الذين يترددون اليها يحملون معهم البهارات والعطور والاحجار الكريمة واللؤلؤ ونسيج الحرير وأسنان الفيل وغيرها من السلع التى يحملها تجار آخرون الى مختلف أنحاء العالم^(٤٣) .

واذا انتقلنا الى المنطقة القريبة الواقعة شمال العراق الحالى أى آسيا الصغرى أو بلاد الروم كما كانت تسمى فى العهد الايلخانى تطالعنا المصادر الاولى عن علاقات تجارية غير قليلة بينها وبين العراق العربى والجزيرة فقد كانت تمتاز بأصناف جيدة ورخيصة من الغنم والماعز وكانت أكثر ذبائح أهل الشام وديار بكر والعراق وبلاد العجم مما يجلب اليها منها^(٤٤) . وقد زار السائح المغربى ابن بطوطة بلاد الروم وأشار الى الزجاج العراقى فى مدينة العلايا^(٤٥) ومر بمدينة (كمش) الكبيرة و ذكر بان التجار يأتون اليها من العراق والشام^(٤٦) وعند كلامه عن مدينة (أيا سلوق)

(٤٠) تحفة النظار ، ج ٢ ، ص ٨٢ .

(٤١) ن . م . ج ٢ ، ص ٨٧ .

(٤٢) ن . م . ج ١ ، ص ١٧٣ .

(٤٣) رحلة ماركو بولو ، (المصدر المار ذكره) ، ص ٤٦ .

(٤٤) مسالك الابصار كما جاء فى القلقشندى ، ج ٥ ، ص ٣٥٦ .

(٤٥) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٩٣ .

(٤٦) ن . م . ج ١ ، ص ١٨٩ .

أشار الى أن سلطانها أعطاه مملوكا روميا وثوبين من الكمخالتي وصفها بأنها ثياب حرير تصنع في بغداد وتبريز ونيسابور والصين^(٤٧) . ويبدو ان نشاط التجار العراقيين كان يصل الى بلاد الارمن التي كانت تمتد - في هذا العهد - الى منطقة آسيا الصغرى الواقعة شمالى سورية . ففي ٧٣٥هـ (١٣٣٤م) غزا عسكر حلب هذه البلاد وألحقوا تخريبات يبدو أنها كانت كبيرة في (طرسوس) و (أذنة) وأخذوا منها الاسرى ، فانتقم أهل (آياس) وهى احدى مدنها ، بمن كان عندهم من المسلمين وجسوسهم في خان ثم أحرقوه عليهم ، وكان ممن قتل في تلك الحادثة نحو ألفي تاجر من البغاددة وغيرهم^(٤٨) .

ويبدو ان التجارة لم تنقطع تماما بين العراق وسورية ومصر بالرغم من العداء المسحكم بين الايلخانيين والمماليك فقد كان الورق البغدادى أشهر ورق في مصر يكتب به للملوك وغيرهم^(٤٩) . وفي ٦٥٩هـ (١٢٦٠م) احضر السلطان الظاهر بيبرس أمراء العربان في سورية وأقطعهم وسلمهم حفظ الدروب الى حدود العراق وأصدر منشورا أمر فيه الامير شرف الدين مهنا على جميع العربان^(٥٠) . وفي ٦٧٠ (١٢٧١م) اتهم قاضى قضاة مصر شمس الدين محمد بن ابراهيم الحنبلى بان لديه ودائع التجار من أهل بغداد وحران والشام بجملة كبيرة وأنهم ماتوا^(٥١) . وفي ٧٠١هـ (١٣٠١م) مات التاجر السفار أحمد بن يوسف بن أبى البدر البغدادى في حلب^(٥٢) .

(٤٧) ن . م . ج ١ ، ص ١٩٣ .

(٤٨) أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ١١٩ .

(٤٩) صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ٤٧٦ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج ١ ،

قسم ٢ ، ص ٤٩٧ .

(٥٠) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٤٦٤ - ٤٦٥ .

(٥١) ن . م . ص ٦٠٢ - ٦٠٣ .

(٥٢) الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٣٣٨ .

وكان تاجر السلطان بالرقيق اسماعيل بن محمد السلامي المتوفى في ٧٤٣هـ (١٣٤٢م) وجيها بين السلطانين محمد بن قلاوون سلطان المماليك وأبى سعيد سلطان الايلخانيين ، وكان يسعى بالصلح بينهما ويصل الى مملكة الايلخانيين الستين والثلاث والبريد لا ينقطع عنه وله فيها ضياع^(٥٣) .

ان اهم المشاكل التي كانت تعانيها تجارة العراق في هذه الفترة تتمثل في موقف القبائل البدوية العربية والكردية التي كانت تقطع الطرق وتنهب التجار ، والخلاف بين دولتي الايلخانيين والمماليك ومضايقة الدولة والاعنياء طمعا بمالهم وعدم توحيد النقود في سائر أنحاء الامبراطورية الايلخانية .

فابن سعيد المغربي وقد مر بالعراق في ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) يشير الى أن خفاجة ، عرب لعراق في عصره ، كانوا يقومون بغارات متصلة على البلاد التي صارت في حوزة التتر ، وكلما طلبوا دخلوا الصحراء كما يقول نأ بطائح الكوفة كانت مأوى للعريان وقطاع الطرق^(٢٤) والسائح ابن بطوطة يشير الى ان مدينة الكوفة كانت خربة في عهده وأن سبب ذلك عرب خفاجة المجاورين لها لانهم يقطعون طريقها^(٥٥) . ويضيف الى ذلك أنه سافر من النجف الى البصرة ، برفقة كبيرة من عرب خفاجة ، اهل تلك البلاد ، الذين كانت لهم شوكة عظيمة حتى أنه لا سبيل الى السفر في تلك الاقطار الا في صحبتهم^(٥٦) . وخلال سفرته هذه الى جانب الفرات ، مر قبل وصوله واسط ، بموضع يعرف بالعدار ، فوصفه بأنه غابة في قصب وسط الماء يسكنها أعراب يعرفون بالمعادي قطاع طرق ، خرجوا

(٥٣) ن . م . ج ١ ، ص ٣٨١ .
(٥٤) كتاب بسط الارض ، ص ٦٥ - ٨٩ .
(٥٥) تحفة النظر ، ج ١ ، ص ١٣٧ .
(٥٦) ن . م . ج ١ ، ص ١١٣ .

على جماعة من الفقراء تأخروا عن الركب فسلبواهم حتى النعال^(٥٧) .
 وفي ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) ظهر أعراب مفسدون في السيب وأطراف واسط
 فسار اليهم العسكر المغولي ونهب منهم الكثير وعاد بالأسرى والاموال^(٥٨) .
 وفي ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) دخل الاعراب يوم الجمعة الى الجامع (بالمحول)
 وهى على مسافة قصيرة من بغداد الغربية فأخذوا ثياب كل من كان فيه ثم
 قصدوا (الحارثية) وكبسوها ليلا وأخذوا ما قدروا عليه وقتلوا جماعة من
 أهلها ولكن شحنة العراق استطاع ان يظفر باكثرهم ويضرب اعناقهم^(٥٩) .
 وفي ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) أمر السلطان كيخاتو الامير المغولى بايدو بالمسير الى
 بلاد واسط وسوادها لظهور جماعة من الاعراب المفسدين ، فسار هذا اليهم
 ولكنهم لجأوا الى البطائح فلم يقدر عليهم فأخذ هو بنهب الاموال وأسر
 الناس وسبى نساءهم ونهب سفن التجار الواصلين من البحر^(٦٠) . وفي
 ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) سار السلطان غازان الى العراق وأرسل العسكر الى
 بطائح واسط حيث حصروا الاعراب واكثروا فيهم القتل والنهب والسلب
 ثم عين جماعة للملازمة أعمال واسط ومنع من بقى من العرب عن
 الفساد^(٦١) . وقد ذكر رشيد الدين فضل الله أن قطاع الطرق من مغول
 وأكراد ولوريين وشاميين وغيرهم كانوا يتناولون على الناس وان البعض
 من المتنفذين وأصحاب السلطة كانوا يتفقون معهم ويغضون النظر عنهم حتى
 كان من الصعب القضاء عليهم حتى جاء غازان وأصلح الحال بوضع مسؤولية
 هذه الحوادث على سكان المنطقة وتعيين عدد كبير من حراس الطرق^(٦٢) .

(٥٧) ن . م .

(٥٨) الحوادث الجامعة ، ص ٤١٥ .

(٥٩) ن . م . ص ٤٥١ - ٤٥٢ .

(٦٠) ن . م . ص ٤٧٦ - ٤٧٧ .

(٦١) ن . م . ص ٤٩٨ .

(٦٢) داستان غازان ، ص ٢٧٧ .

وقد أشار ماركو بولو في كلامه عن رحلته في منطقة الموصل ، بأن الاكراد كانوا يقطنون الاجزاء الجبلية ويشغلون بسرقة التجار^(٦٣) .

وقد كان الخلاف المزمع بين دولتي الايلخانيين والمماليك سببا في صياح الامن وقطع الطرق على التجار بين العراق والبلاد العربية المحيطة به فقد كان احتمال غزو سورية خطرا قائما حتى أواخر أيام أبي سعيد آخر سلاطين الايلخانيين وكان جنود المغول يهددون أطراف سورية ويتغلغلون حتى مدينة دمشق نفسها في بعض الاحيان وكان جنود المماليك والقبائل العربية التابعة لها خصوصا قبائل طي الضاربة في الصحراء السورية تهدد أطراف العراق والجزيرة وتقترب من الموصل ومن ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس جهز في ٦٦٣هـ (١٢٦٤م) عسكريا كشيفا الى ناحية الفرات ليطرد التتار النازلين (باليرة) فلما سمع المغول بذلك ولوا مدبرين وأمنت المنطقة بعد خوف وقلق واضطراب^(٦٤) وفي ٦٧١هـ (١٢٧٢م) سار السلطان بيبرس الى نفس الناحية وكانت محاصرة بطائفة من التتار فلما سمعوا به هربوا^(٦٥) وفي ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) أغار عسكري الشام على ديار بكر والموصل وأربل وقتل وأسر الكثير من أهلها ونهب أموال التجار في قيسارية الموصل^(٦٦) .

وفي ٦٩٩هـ (١٢٩٩م) أفلحت الجيوش المغولية بقيادة السلطان محمود غازان في أيقاع هزيمة كبيرة في وادي الخزندار من حمص بقوات المماليك التي كانت تحت قيادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون وقد دخل المغول دمشق وتراجع المماليك الى مصر ولكن غازان ما لبث ان عاد الى الموصل

(٦٣) رحلة ماركو بولو (المصدر المار ذكره) ، ص ٢٨ .

(٦٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٤ .

(٦٥) ن . م . ج ١٣ ، ص ٢٦٣ .

(٦٦) الحوادث الجامعة ، ص ٤١٥ .

فى طريقه الى ايران وعاد الممالك الى سورية ثم أنه عاد الى سورية بجموع
كثيفة من جنوده والتقى مع السلطان الناصر فى (شقحب) بالقرب من
دمشق فى ٧٠٢ هـ (١٣٠٢م) فهزم التتر هزيمة كبيرة وولوا مدبرين^(٦٧) .
ومن الجهة الاخرى كانت الاتصالات تجرى فى بعض الاحيان بين الايلخانيين
والمماليك لتحسين العلاقات وتسهيل سبل التجارة بينهما ففى ٦٨١ هـ
(١٢٨٢م) أرسل السلطان أحمد بن هولاکو الذى تحول الى الاسلام قبل
قليل رسالة الى الملك المنصور قلاوون يطلب فيها انتهاء حالة التوتر والحرب
بين الدولتين واطلاق سبل التجار والمسافرين فأجاب المنصور قلاوون الى
ذلك وأصدر أوامره بتسهيل سفر التجار^(٦٨) ولكن ذلك لم يدم الا فترة
قصيرة لان المغول قتلوا السلطان أحمد بن هولاکو ونصبوا الامير أرغون
سلطانا فى ٦٨٣ هـ (١٢٨٤م) فعادت العلاقات الى التوتر بين الدولتين
الايلخانية والمملوكية وقد أرسل السلطان محمود غازان فى أواخر حياته
رسلا بيهم قاضى الموصل وخطيبها كمال الدين بن بهاء الدين الشافعى
الى السلطان محمد بن قلاوون يطلب انتهاء حالة الحرب بين الجانبين وما نتج
عنها من تعذر سفر التجار وتوقف البضائع والاسفار^(٦٩) ولكن الناصر
اعتبر طلبه من باب الحيلة والخداع ولذلك رفضه . وقد ظلت العلاقات
متوترة بين الجانبين حتى ٧٢٠ هـ (١٣٢٠م) حيث نشطت مفاوضات الصلح
بينهما وانتهت بعودة العلاقات السلمية بين الدولتين فى أواخر عهد السلطان
ابى سعيد آخر الايلخانيين الذى توفى فى ٧٣٦ هـ (١٣٣٥م)^(٧٠) .

(٦٧) أبو الفداء ، المختصر فى اخبار البشر ، ج ٤ ص ٤٤ ، ٥٠ .

(٦٨) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٥٠٨ - ٥٠٩ .

(٦٩) جمال الدين ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص

١٣٧ - ١٣٨ .

(٧٠) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، قسم ١ ، ص ٢١١ - ٢١٤ .

قسم ٢ ، ص ٣١٠ - ٣٧٢ .

وأخيرا يبدو ان جانبا مهما من ثقل الضرائب كان يقع على التجار فيعرقل التجارة ويؤدى احيانا الى غلق الاسواق هربا من الضريبة كما ان اضطراب النقود وعدم توحيدها فى مختلف ولايات الامبراطورية الايلخانية ووجود مناطق تكثر فيها العملة الرخيصة كان يربك التجارة ويدفع بالتجار الى تجافى بعض المناطق لكثرة العملة الرخيصة فيها^(٧١) .

(٧١) انظر الحوادث الجامعة ، ص ٣٩٨ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ ، داستان غازان ، ص ٢٨٢ .



Economic Conditions In Iraq
In The Period Of The Ilkhanid Mongols

(1258 - 1336)

JA'FAR H. KHESBAK (Phd)

Assistant Professor of History

In The University of Baghdad

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 074072487

(NEC)
HC415
.4
.K457
1963